قضايا إسلاميّة معاصرة

طه جابر العلواني

مقدمة في

إسلاميّة المعرفة

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فهذه مجموعة محاضرات كانت قد ألقيت في دورة مكثفة وقصيرة في السودان، عقدتها وزارة التعليم العالي (إدارة التأصيل) بالتعاون مع (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) في خريف عام ١٩٩٦ لأساتذة الجامعات السودانية. الذين قررت وزارة التعليم العالي إعدادهم أساتذة للتأصيل وإسلام المعرفة في الجامعات السودانية. ودعت المؤلف لإلقاء هذه المجموعة من المحاضرات ومناقشتها مع خمسين أستاذًا من هؤلاء، تم انتخابهم من بين ٢٥ جامعة من الجامعات السودانية. وقد استضافت (جامعة الجزيرة) في السودان بناءً على رغبة وزارة التعليم العالي هذه الدورة وعقدتها في "معهد إسلام المعرفة" وهو المعهد الذي أسسه مجموعة من الأساتذة السودانيين وفي مقدمتهم أستاذ الاقتصاد الدكتور محمد الحسن بريمة والأستاذ بجامعة الجزيرة. فعقدت هذه الدورة وألقيت فيها هذه المحاضرات، وكان يفترض أن تضم إليها سائر الأسئلة والمناقشات والحوارات التي أبداها الأساتذة الخمسون، ولكن يبدو أن الخلل الفني في بعض التسجيلات لم يسمح بتحقيق هذا، فتقرر طبع هذه المحاضرات مصدّرة بالمحاضرة الأولى التي تقدم بها الأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم عمر وزير التعليم العالي ورئيس قسم الفلسفة بجامعة الخرطوم سابقا، ولذلك فإن المطلع عليها يجد أن لغة الخطاب والمشافهة هي لغة المحاضرة وليس لغة القلم والكتابة. كما أن عملية التوثيق في هذه المحاضرات كانت عملية تالية لعملية تفريغها من الأشرطة. ولإثراء الإنتاج في هذه القضية تقرر أن تطبع هذه المحاضرات ولو من غير إعادة صياغتها وسبكها من جديد لإزالة الفروق ما بين المشافهة والكتابة، رغبةً منا في تعميم الفائدة منها وإتاحتها بين أيدي المهتمين في هذا المجال.

لا شك أن لغة المشافهة والظروف التي ألقيت فيها هذه المحاضرات تحكمت إلى حد ما في أسلوب تقديمها وعرضها ومجالات تناولها وحتى بعض الأمثلة التي ضربت فيها. ولعل من الجدير بالذكر أن هذه الدورة كان المفروض أن يحاضر فيها ثلاثة أشخاص وهم كا من: د.حسن الترابي و د.إبراهيم أحمد عمر و د.طه جابر العلواني. ولإنشغال الأولين فقد تحمل الأخير عبء هذه المحاضرات وحده ما عدا المحاضرات الأولى. كما أن هناك نقطة طريفة أخرى جديرة بالإشارة وهي أن د.حسن الترابي رفع اعتراضًا حول مصطلح "أسلمة المعرفة" و "إسلاميّة المعرفة" وأبدى كثيرًا من الإستدلالات على أن الأصوب عنده استعمال مصطلح

أي "إسلام المعرفة" تحاشيًا من استخدام المصدر الصناعي "اسلمة" أو النسبة أي "إسلامية" وما قد يكون فيها من إيحاءات وقد استجاب لذلك الأخوة في جامعة الجزيرة فغيروا اسم المعهد إلى "معهد إسلام المعرفة" بدلا من "معهد إسلاميّة المعرفة" وربما شجعهم على ذلك أن الكلمة الرمزية التي تألفت من حروف التسمية الجديدة صارت "إمام" وأصبح معهد "إمام" وهذا المعهد يمنح درجة الماجستير والدكتوراه انطلاقًا من عملية الأسلمة التي تحوّلت إلى "التأصيل" في السودان أخذت طابعًا وتوجهًا ذا لمسات سودانية خاصة، مما يدل على أن الأسلمة أو التأصيل أو إسلام المعرفة أو توجيه المعرفة وجهة إسلاميّة كل هذه المصطلحات تنم عن الإلتقاء حول المضمون الواحد الذي يمكن تلخيصه بتقديم "المعرفة" انطلاقًا من نظرية "المعرفة الإسلامية" لتحقيق أهداف الإسلام في المعرفة والمادة الربط بين المعرفة والقيم، وتقديم نظرية إسلاميّة متكاملة في قضايا المعرفة شاملة لمصادرها وأهدافها وتصنيفها وتاريخها وعلاقتها بالقيم وانعكاساتها على العقلية والنفسية الإنسانيتين؛ لإعادة تشكيل وبناء الشخصية السلامية.

وقد سبق للمؤلف أن قدم محاضرات مماثلة كنا نود أن نضمها إلى هذه المحاضرات وذلك حينما قام بتدريس إسلاميّة المعرفة لطلبة الدراسات العليا في "الجامعة الإسلاميّة العالمية في ماليزيا" عام ١٩٩٧، حيث قدم سلسلة أخرى يبدو الخلاف واضحًا في طريقة التقديم والعرض وفي بعض الأفكار التوضيحية المطروحة فيها مراعاة للاختلاف بين بيئة السودان وبيئة ماليزيا، وبين أساتذة متخرجين وبعض طلبة دراسات عليا. ولعلنا نجد فرصة أخرى لتجميع تلك المحاضرات وتقديمها بشكل مناسب للغرض ذاته، ألا وهو إثراء الكتابة في هذا المجال الذي لايزال في حاجة إلى كثير من الدراسات والبحوث والمحاضرات والحوارات لتتضح القضية. ولعلها بعد ذلك تصبح تخصصًا من التخصصات التي تتعامل معها العلوم كلها وتدخل فيها كفلسفة نظرية من ناحية، وجزءًا أساسًا من مداخل العلوم ومقدماتها، توضح المنظور الإسلامي وتذكر الأساتذة والمدرسين به وتشير إلى ضرورة معرفة "نظرية المعرفة" في الإسلام بسائر جوانبها وأقسامها وتوضيحها للطالبين.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

طه جابر العلواني

٦ / ٧ / ١٩٩٩

مدخل

ماذا عن إسلاميّة المعرفة ؟

إسلاميّة المعرفة تريد أن تنسب المعرفة للدين. لذلك عندما نتناول هذه القضية لا بد أن يكون في أذهاننا أننا سنواجه الأسئلة، فلا بد أن يكون عندنا رد عليها، رد مقبول، أو بالأحسن مفحم.

إذا أنت ذهبت تتكلم عن نظرية المعرفة في جامعة غريبة، ستجد أن المدرسة الغالبة الآن هي مدرسة منبسقة من النظريات والأفكار التي اختلفت مع الكنيسة([١]). والمدارس الفكرية الموجودة في الجامعات الغربية التي تسود فيها نظريات للمعرفة، كانت نتاجًا طبيعيًا للاختلاف الذي حدث بين العلماء والكنيسة.

طبيعة الخلاف بين العلماء والكنيسة

إن العلماء الذين قاتلوا الكنيسة لم يكونوا في الأساس علماء اجتماع ولا علماء إنسانيات([٢]) والخلاف الذي حصل بين العلماء والكنيسة كان في الأساس خلافًا بين الكنيسة والعلم الكوني. لكن هذا الخلاف الذي نشأ بين علماء الفيزياء أو الفلك والكنيسة كان أثره قويًا بحيث أنه شمل فيما بعد كل العلوم.

لقد اختلفوا حول الأرض وموقعها ودورانها([٣]). وقالت الكنيسة قولا وقالوا هم قولا آخر، ولكن بتقدم وسائل العلم والمعرفة صح قولهم وأخطأت الكنيسة، لذلك قالوا الكنيسة ادعت أنها تعرف، وهي حقيقة لا تعرف، وهذا الكلام ينطبق على قول الكنيسة في كل المجالات.

قالوا: فقدنا الثقة في كل كلام تقوله الكنيسة لأنها كانت تقول أن هذا هو كلام الرب، أو هذا هو الكلام الإلهي، أو هذا هو الكلام الصحيح، وما دام هذا هو الكلام الديني، فلنفكر وننظر ونصل للحقائق العلمية بطريق آخر غير طريق الدين.

سيادة المنهج التجريبي الوضعي

---

[1] - هذه المدارس اندرجت كلها تحت التيار العلماني الذي اختلف مع الكنيسة،وقوض نظامها اللاهوتي واستبعد الوحي من الإطار المعرفي واعتبر الحس وحده مصدرا للمعرفة وعمل على إحلال النسبية محل المطلق.

[2] - لم يكن المختلفون مع الكنيسة علماء اجتماعيات أو إنسانيات في ذلك الزمان، وإنما كان الصراع بين علماء الطبيعيات مثل كوبرنيكس وجاليلو وغيرهما، ولكن عندما ساد المنهج الوضعي عن طريقة فرانسيس بيكون امتدت منهجيته إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية، وحاول إخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب إلتماسًا لتحقيق العلمية، ولا شك أن التجريب يشدي للكشف عن الحقائق ولكن الوضعية لا تستعمله لأنه أداة معرفية صالحة وإنما لسد الطريق أمام التفكير الديني واعتبار النموذج الوضعي هو السلطة المرجعية للعلوم الإنسانية (انظر منهج البحث الاجتماعي، ص ٥٣ ـ ٥٤).

[3] - قام العداء محتدمًا بين الكنيسة التي كانت تمارس أسلوبا دوغمائيا في فرض آرائها وبين العلماء الطبيعيين حول مركز الكون فقد حاول كوبرنيكس أن يثبت أن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كانت تدعي الكنيسة فعارضته الكنيسة بشدة وحكمت عليه بالإلحاد.

الطريق الآخر الذي ليس فيه الدين هو طريق يعتمد على قدرات الإنسان فقط، فطريق الوحي والدين تبين خطؤه وهو طريق الكنيسة اللاهوتي، والذي أبان الخطأ هو القدرات الإنسانيّة التي جاءت بعلم عن هذا الكون وكان صحيحًا.

الطريقة الإنسانيّة هي الطريقة التي تعتمد على قدرات الإنسان، الإنسان يلاحظ ، يجرب، يفكر .. المعرفة إذًا هي نتاج الحياة.

هذه هي الأشياء التي يدركها الإنسان حسيًا، لأنه يلاحظ ويجرب ويحدد المنهج التجريبي ولأنه يفكر أدخلت المعطيات العقلية أو الرياضية أو المنطقية في هذا الإطار؟ أنها تبدأ من المدركات الحسية للإنسان. وتخضع للتجربة وللتفكير الإنساني المستغل لأدوات المنطق والرياضيات. لا معرفة تخرج من هذا الإطار. هذا هو مثل كلام الكنيسة ليس فيه معنى.

أضواء على المنهج الوضعي للعلوم الاجتماعية

واستمرت هذه المدرسة للقرنين الماضيين في مجال الفلسفة ومجال فلسفة العلوم على وجه الخصوص. ولكنها امتدت وشملت أيضًا المجال الاجتماعي والإنساني، لماذا؟

لأنه عندما تقطع الصلة مع الدين ومعطيات الوحي، وتنظر لهذا الكون على أساس أنه هو ما يدرك بالحواس ويجرب ويعقل فإننا نجد أن الكون هذا أيضًا يشمل المجموعات الإنسانيّة.

ولأن العلوم الكونية قد سلكت هذا السبيل كلها فقد سعت العلوم الإنسانيّة في أن تحذو حذوها وأصبحت حمّى أصابت علماء الاجتماعيات والإنسان كي يكونوا مثل علماء الكون والطبيعة.

وفترة القرن السابع عشر والثامن عشر شهدت تقدمًا علميًا كبيرًا. وهذا كله في خصام مع الكنيسة وباعتماد كامل على التحديد الذي ذكر لموضوعات المعرفة. وباتخاذ المنهج الذي ذكر لتحصيل المعرفة وباستعمال اللغة.

تحديد موضوعات المعرفة

وهذه قضية أخرى هامة فباستعمال اللغة الفنية التي يستعملها هؤلاء العلماء في مجال العلوم الكونية، فقد صاحب هذا التقدم تقدم كبير في نفس الوقت في مجال العلوم البحتة والرياضيات والمنطق، والرياضيات والمنطق يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بعلوم اللغة، لذلك أيضًا ازدهرت علوم اللغة بازدهار المنطق والرياضيات وأصبحت هناك جبهة عريضة، تقوم على تحديد الموضوعات لأن هذه الموضوعات المدركة حسيًا، وهذهالوسيلة التجريبية، وهذه الأدوات الرياضية المنطقية اللغوية، جبهة رهيبة، اكتسحت، تقدمت ... وأصبحت النموذج الذي يحتذى؛ لذلك بدأ علماء الاقتصاد يقولون علم الاقتصاد، وعلماء الجغرافيا يقولون علم الجغرافيا وأنه لا بد أن ينتقل قسم الجغرافيا إلى قسم العلوم.

بدأ الاجتماعيون يقولون العلوم الاجتماعيّة وعلماء الإنسانيات يقولون العلوم الإنسانيّة. فقد أدخلت كلمة علم هذه كجزء من التسمية لكل مجال من المجالات، ومحاولة للوصول إلى نفس ما وصل إليه علماء العلوم الكونية، التي رأوا فيها القدوة، ولذلك أصبحت العلوم كلها تسعى هذا المسعى الذي يرتبط بالتجربة والمدركات العقلية.

نشوء الرؤى الكلية بمعزل عن الوحي واقصاؤه كمصدر للمعرفة

أضف إلى ذلك الفشل الذي لحق بالكنيسة واطروحات الكنيسة التي أدت ببعض المفكرين والفلاسفة، لكي يبحثوا عن رؤى وفلسفات لهذه العلوم الجديدة يريدون أن يضعوا التجربة والعقلانية والوسائل التي ذكرتها في إطار رؤية متكاملة، فنشأت وازدهرت فلسفات مادية، لأن هذه الفلسفات لا بد منها في النهاية لنسيج متكامل للمعرفة. وأصبح الكلام عن أي شيء يعطي مصدرًا للمعرفة سوى هذا الكلام لا ينظر إليه قط. هذه أصول تحددت.

تقسيم القضايا إلى علمية وغير علمية

المرحلة التالية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين هي مرحلة إخراج تفصيلات هذه الرؤية الكلية، ولذلك تطرح أسئلة عن كيفية التأكد من صحة القضية التي تصف أو تخبر، وتستمر نظرية المعرفة تبحث عن كيف نحسم القضايا المعروفة عندنا إلى قضية علمية وقضية غير علمية، لأن الناس يتحدثون ويدعون أنهم ينقلون معرفة بهذا الحديث. فكيف نفرق بين قضية تحمل معرفة وبين قضية لا تحمل معرفة، تدعى ذلك ولكن لا تحمل؟ فانشغل الناس بهذه القضية، في هذا الإطار الذي يبعد الدين.

فظهرت المشاكل التي لا بد أن تظهر ... العلم المادي الذي بني على هذا الأساس وأصبح قدوة يعتمد في أساسه على نوع من القضايا التي لا تنصاع لهذه الأحكام. القانون الطبيعي في الفيزياء مثلا يقول إذا فعلت كذا حدث كذا.

هذا القانون الطبيعي شكّل مشكلة لهذه النظرة التي بعدت عن الدين. لأن القواعد التي وضعت لتصنيف القضايا إلى علميّة وإلى غير علميّة تخرج هذه القضية من العلمية. إن القضية العلميّة قضيّة عندهم قابلة إلى التجريب إذا كانت القضيّة تصف شيئًا أو تخبر عن شيء ولا تكون قابلة للتجريب إذن هي قضيّة غير علميّة. أي قانون عام لن يكون بهذه الصورة قابلاً للتجريب لأنه يتكلم عن مجموعة كبيرة من الأحداث المتشابهة في الزمان والمكان المختلفين والتي لا يمكن أن تحصى وتجمع وتختبر كلها.

إشكاليات المنهج الوضعي

١ - الفشل في إثبات صحة القانون الطبيعي:

كيف نؤكد صحة القانون الطبيعي؟ انشغل العلماء والفلاسفة بهذه القضية طيلة هذه السنوات، فوضعوا فيها النظريات ... والذي طرح في هذه القضايا، أيضا أن الأسلم للمحافظة على المنطلقات الأساسية لنظرية المعرفة هذه. إما أن تلغي الأساس المادي الذي قامت عليه أو تجد حلاً آخر.

فواحد من هذه المخارج أن لا أتحدث عن توكيد القضية أو عدم بطلانها، واستمرت أيضا هذه المدرسة الفلسفية في نظرية المعرفة تحاول أن تؤكد أن المعلومات هي هذه وأن التجربة وأدواتها المنطقية هي الأساس فس تحصيل المعرفة، وبدلا من أن نقول "نؤكد"، نقول: كيف نبطل هذه القضية. نحتفظ بها لنبطلها، هم يريدون المحافظة على القضايا الأساسية من مشكلة حدثت من داخلها هذه القضايا!

وهذا كله في تحاش كامل للعودة إلى ما قد هرب منه بالأمس. لأنهم لا يريدون على الإطلاق أن يقال لهم إن انطلاقكم الأول لم يكن صحيحًا. أي أنتم عندما ظننتم أن باختلافكم مع الكنيسة وترككم لها أخطأتم، والكنيسة أخطأت هي أيضا. فارجعوا للمصدر الصحيح والطريقة الصحيحة.

٢ - الفشل في إثبات الصحة الكلية للقضايا:

أيضا هذه المدرسة لم تفلح في حل الإشكالات المعرفية المتعلقة بهذا الفهم للمعرفة، لمصادر المعرفة، لمنهج المعرفة.

ولأنهم غاصوا أيضا في مشاكل أخرى، فقد حاولت مدرسة جديدة متولدة منهم أن تقول: الخطأ ليس في اعتبار التجربة والمدركات العقلية، ولا في استعمال الأدوات التجريبية، ولا في النظرة التي تقول إن المعرفة يجب أن تكون هكذا، وإنما الخطأ في إننا خاولنا أن نقول أن القانون الطبيعي إما أن يثبت نهائيا – وهذا فشلنا فيه – أو يبطل نهائيا بسبب حادثة مضادة لما نقوم به. وهذا أيضا خطأ. القانون الطبيعي لا يمكن التعامل معه هكذا، أو على الأقل إن التعامل معه هكذا سيهدد نظرية المعرفة عندهم فلا بد أن يخرجوا إلى شيء أوسع من القانون وهو الذي نسميه مجموعة قوانين، أو (النظرية العلمية). لأنه قد أوضح أن اعتبارهم الملاحظة والتجربة وصياغة ذلك في لغة فنية لقضية مفردة أو التعامل مع هذه القضية الكلية بهذه الصورة سيوصلنا إلى طريق مسدود. وإما أن لا يعرف كيف تبطل القضية أو للشك في أن قضية كلية تبطل هكذا بقضية فردية، وهذا الشك لديه أساس قوي في الواقع العلمي.

المهندسون يتعاملون مع قوانين في الميكانيكا والعلماء النظريون يعرفون أنها مضى عليها الزمن. نظرية باطلة في مستوى من المستويات... ولكن بالرغم من هذا نستعملها؛ لأن هذا

البطلان ناتج عن كونها غير دقيقة دقة كافية، ولا تصف الظاهرة الطبيعية وصفًا دقيقًا بما فيه الكفاية.

هذا وجه بطلانها، ولذلك يمكن أن يصاغ قانون في الميكانيكا أكثر دقة ويكون هو أكثر صحة وأصدق وصفًا للحقيقة الكونية.

لكن بالرغم من هذا لم يتخل المهندسون عن القانون بصورته الأولى لأن الدقة غير محتاج إليها في الجانب العملي. لكن لننظر للعالم النظري.. شخص يريد أن يتكلم عن هذا صحيح وهذا باطل لا يمكن أن يقبل هذا القانون.

٣ - عدم الاعتراف بنقصان المصادر المعرفية لديهم:

إذن المحاولات المختلفة لرتق هذه النظرية وحل الإشكالات كانت دائما تؤدي من مرحلة إلى مرحلة، ولكن دائما كانوا يحاولون أن يتفادوا الكلام عن الأسس الأصلية (إن مصدر المعرفة ناقص)، لا مصدر ثابت، لا يريدون أن يتزحزحوا عن أن مصدر المعرفة هو إما هذه المدركات الحسية وإما هذه المدركات العقلية وإن الأداة في التحصيل هو هذه الأداة الفنية المنطقية الرياضية، استمر هذا الحال في المدارس الغربية حتى منتصف هذا القرن.

٤ - محاولة رتق النظريات القديمة وإصلاحها:

في منتصف هذا القرن ظهرت دراسات جديدة عن المعرفة دراسات لا تتحدث عن قضية فردية، ولا عن قانون طبيعي، هكذا دائما تتحدث عن نظرة شاملة، فيها قوانين كونية كثيرة، فيها علاقات واسعة.. شبكة. واتجه التفكير المعرفي المعاصر إلى نسق متكامل مترابط.. حتى إذا أنت اخترقت جزءًا منه فليس معناه أنك أسقطه كله.

والتعامل مع القضايا المفردة والأحداث المفردة لا يتم كما كانوا يظنون هم أنفسهم قبل مئات السنين إنك إذا وجدت قضية مضادة لما كانوا يطرحون فتنسف كل المشروع. المعرفة لم تكن هكذا ولا يتعامل مع الأشياء المضادة هكذا...

٥ - صعوبة تشكيل نظرية كونية متكاملة:

بدأت تحث تغييرات في مفهوم نظرية المعرفة، وأخذ بعض الناس يهتمون أكثر بمجموعات بعينها من العلماء، لأن التشكيل المتكامل لنظرة كونية صعبت عليهم في إطار العالم المتخصص، ما وجدوا – كما كان قديمًا – فيلسوفا أو عالمًا يدعي أنه يعرف كل العلوم.

لقد وجدوا مجموعات من العلماء والدارسين كلّ في مجاله، الفيزيائيين، علماء الطبيعة، وعلماء الاجتماع، الأطباء، وهكذا.

قالوا: إن أفضل شيء هو عمل دراسات تاريخية لمجموعات عاملة الآن في مجالها تعرف من حيث الواقع كيف نتحصل على المعرفة، بمعنى إننا بدلا من أن ننظر إلى أن المعرفة

تعرف هكذا، أو تتحصل هكذا ولا يستنسخ منها هكذا.. ولا يبنى عليها هكذا، من الأفضل أن نرى هذه المجموعات العاملة نفسها والتي أحرزت هذا التقدم العلمي.. كيف تعمل؟ لأنهم يعتقدون أن هذه الطريقة الوحيدة التي بها تبنى المعرفة.

هذه المحاولة حاولت أن تعطي الباحثين والعلماء في مجال معين يدًا عليا على المنظرين الكليين أو المنظرين من خارج المجال.

الإسلام وموضوعات المعرفة ومصادرها

إذا كنا نحن كمسلمين نؤمن بالله سبحانه وتعالى فكيف نتعامل مع هذا الواقع؟ وهل هناك نظرية معرفيّة إسلاميّة تكون هي الإطار لهذه العلوم؟ وكيف نأخذ هذه العلوم في شتى المجالات في إطار نظريّة معرفيّة إسلاميّة؟

ذكرنا في بداية الحديث عن نظريّة المعرفة أحد الأسئلة الرئيسية: ما هي موضوعات المعرفة؟ إذا كان هناك شخص مسيحي أو شخص علماني أو شخص ملحد توافقه في أن كل ما نشاهده وندركه بحواسنا هي موضوعات معرفة. ولا شيء سوى ذلك: فهل أستطيع أنا أن أقبل هذا؟ لا أستطيع.

لأنه إذا كان أصل المعرفة هو صور الإدراك، وجاء شخص وحاول أن يحطم هذه الصور بالإدراك الحسي أو المعطيات العقلية. أنا لا أستطيع أن أقبل من منطلق أن هناك مدركات غيبيّة أي موضوعات معرفة بالغيب. أنا بحكم ما أؤمن به من كتاب ومن سنّة لا بد أن أعلم أنها الحقيقة وأسلم بها.

إذن في تحديد موضوعات المعرفة سوف أختلف معه. وفي النظرية التي تريد أن تحصر موضوعات المعرفة في الأشياء التي تُدرك حسيًّا أو في المعطيات العقلية فقط.

إذًا القضية الثنية التي تقول : أن أي قضية (قضية تعني جملة خبرية) تتحدث عن شيء لا يمكن تجربته فهي ليست قضية علمية. هل أستطيع أنا أن أقبل هذه النظرية؟ لا أستطيع. لأنه حسب هذا الفهم يسمون أي قضية لا تكون قابلة للتجريب (Meaningless) لا معنى لها أو لا محتوى لها. فهل القضية التي تتكلم عن الغيب أو عن الجنة والنار أو عن الملائكة هل تعتبر بالنسبة لي بلا معنى في النسق الخاص بي؟ لا أستطيع.

إذا كان المصدر الوحيد هو المشاهدة بالتجربة ثم المعطيات العقلية، وأنا عندي كتاب فيه الخبر عن السماء والأرض وعن الجبال وعن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الآخرة، فهل أستطيع أن ألغي هذا المصدر وأقول إنني مازلت في إطار الإسلام؟ لا أستطيع.

إذن، لا أوفّق في مجال تحديد موضوعات المعرفة، ولا في مجال تحديد مصادر المعرفة. ولا في مجال تحديد منهج التحدث عن موضوعات المعرفة أو لغة المعرفة، أنا لا يمكن أن أتفق مع النظرية المعرفيّة السائدة الآن.

ولا بد لي من أن أنطلق انطلاقة تحفظ لي الأساسيات التي أؤمن بها وفي نفس الوقت تعطيني ما أريده من نظرية المعرفة. ماذا أريد منها؟

أنا أريد أن أكون في مكان لتحصيل المعلومات بصورة صحيحة، وتصنيفها بصورة صحيحة، والتثبت منها بصورة صحيحة، والبناء عليها بصورة صحيحة، والتنبؤ على أساس منها بصورة صحيحة. وهذا كله ما أحمله إلى العالم، وهذا كل ما تطلبه نظرية المعرفة: أن تكون قادرة على انتقاء المعلومة الصحيحة، وتعرف إنها صحيحة أو باطلة.

لذلك معيار، ولديك طريقة للتعبير عنها بصورة فنية، ولديك طرق لتجميع هذه المعلومات، ولديك طريقة للبقاء عليها بشكل كامل والاعتماد عليها في التنبؤ المعرفي.

إذن نحن نحاول جاهدين أن نقول أن هذا الذي حدث في الغرب، يجب أن لا يعمينا عمّا نسعى إليه، ونتأكد أكثر بأننا فعلا قادرون على الوصول إلى هذا. نظرية المعرفة الإسلاميّة تنطلق من أن المصادر المعرفية المتداولة مقبولة، ولكنّها ناقصة. وتمامها بأن يعتبر الوحي مصدرًا من المصادر.

الإسلام وإضافة المصدر المبعد

نظرية المعرفة الإسلاميّة تنطلق من أن معظم هذا الذي يقال من الاهتمام بالتجربة أو الأدوات العقلية المنطقية والرياضية مقبول في مجمله، ولكنّه لا يكفي تمامًا، وكفايته في أن نضيف إليه مصدرًا آخر هو الوحي.

لكن هنا تبرز نقطة مهمة جدًا، أن ينضم الوحي كمصدر من مصادر المعرفة ليس بالضرورة أن تبقى كل تلك الأشياء كما هي.

وهذه نقطة مهمة جدًا ودقيقة جدًا. فعندما يكون لدي ثلاثة مصادر تكون معطيات هذه المصادر بكيفية معينة، فإذا ضممت إليها مصدرًا جديدًا فربّما أثّر على المصادر الباقية، لا يلغيها ولكن يشكلها من جديد.

بمعنى أن التجربة وحدها قد تكون مختلفة عندما يضاف إليها الوحي، لماذا؟ لأن الوحي عندما نفهمه تستبين رؤية قد تعدّل من الرؤية التي كنا نراها من قبل.

القصد من النظريات الكليّة أن توضح نظرة أو رؤية متكاملة، والتكامل من مصادر مختلفة تشكل الرؤية بصورة سليمة.

ترتيب مصادر المعرفة

هناك قضية أيضًا لا بد أن ننبه إليها: هل هناك مصدر أسبق من الآخر؟ هل هناك مصدر أهم من المصدر الآخر أم أنها كلها على قدم المساواة؟

بالنسبة للمعرفة التجريبية بالتأكيد مصدر الإدراك الحسي هو الأساس وهو المجمل، فإذا كان التفكير العقلي أيضا مصدرًا معترفًا به فإني أقول: إذا كان هناك تنبؤ عن شيء وأبانت التجربة خطأه فالتجربة هي الحكم والإدراك المباشر في الحكم.

إذن هناك ترتيب في إطار التكامل بين مصادر المعرفة، وأقول هذا الكلام لأننا عندما نأتي للحديث فيما بعد عن التكامل بين الوحي والإدراك الحسي والمعطيات العقلية، سوف نتطرق لهذه القضية.

نحن نريد أن نقول أنه بالنسبة لنظرية المعرفة غير الإسلاميّة كانت التجربة هي الأساس، وعندما ينضم الوحي أيضًا مصدرًا من مصادر المعرفة، هل سنقول الكتاب والسنة هما أولا والتجربة ثانيًا، أم سنقول أنهما في نفس المستوى؟

كيف نجيب عن مثل هذه الأسئلة؟ الإجابة تنطلق من قضيتنا التي تحدثنا عنها الآن، نحن نريد أن تكون هناك نظرية معرفة إسلاميّة في جميع العلوم. (وإسلامية) معناها مرتبطة بالدين، معناها أنه لا بد من أن نتأكد أن إجاباتنا على مثل هذا السؤال تنطلق من الدين، إجاباتنا على هذه الأسئلة ذاتها لا بد أن تنطلق من الدينيعني لا يمكن أن أضع القرآن والسنة، والتجربة لأرى أي نظرية هي الأسبق. الانطلاق من القرآن والسنة يعني أنه لا بد من تحديد المفاهيم المعرفية والعلمية من القرآن والسنة أولا، ليس هذا رفضا للتجربة ولا للعقل، لكن لا بد أن نبتدئ بتحديد أشياء أساسية، ومفاهيم رئيسية مفتاحية في هذه القضية.

محاولة بناء نظرية إسلاميّة المعرفة

نحن نحاول أن نجد رؤيتنا الخالصة، فلا بد من أن ننطلق من مفاهيم حقيقية مأخوذة من أهم ما في نسقنا. مفاهيمنا المفتاحية لا بد أن نأخذها من قلب هذا النسق الفكري المعرفي، هذه المفاهيم المفتاحية عن نظرية المعرفة موجودة وبصورة واضحة في القرآن.

لكي نجيب عن الأسئلة المتعلقة بكيف نستخرج نظرية المعرفة الإسلامية؟ أو هل هناك تفاوت في نظرية المعرفة الإسلامية؟ أو هل نستطيع أن نبدأ من هنا أو هناك؟ أن هناك مفاهيم مفتاحية لا بد من استيعابها، المفاهيم الخاصة بما تبحث عنه، عن أشياء المعرفة، عن طرق تأصيل المعرفة، عن طرق تثبيت المعرفة، عن بناء المعرفة...

هذه القضايا فيها مفاهيم مفتاحية لا بد أن نعرفها، ومنها نستطيع أن ننطلق لتحديد موضوعات المعرفة، لتحديد منهج تحصيل المعرفة، لتحديد طريقة تثبيت المعرفة، أو الوصول للمعرفة، على طريقة البناء المعرفي.

وإذا ما حذفنا هذه المفاهيم المفتاحية فلا أعتقد أننا سنتقدم كثيرًا. وهذه المفاهيم متداولة في النظرية الغربية، فمن السهل أن ننزلق فيما بعد في الأطروحات المغايرة المناهضة أو المخالفة، أو على الأقل تلك التي لا تنطلق من مصادرنا.

إذن علينا أن نأخذ هذه المفاهيم المفتاحية ونعرف معناها.

بناء المفاهيم في النسق الإسلامي

وإذا ذهبنا إلى الخطوة الثنية للحديث باللغة الفنية في مجال نظرية المعرفة لا بد أن نستعملها بالمعنى الذي توصلنا إليه، أي الحديث بألفاظ القضايا والجمل من غير انتباه لمعناها الحقيقي كما هو في نظرية المعرفة، عندنا يؤدي إلى تراكمات ترينا مفاهيم غير إسلامية. إذن أنا أبدأ بهذه المفاهيم ومنها كذا وكذا وأحاول أن أفهم، ولعلني في هذه اللحظة أقول أن هذه المفاهيم بدراستنا لها تفتح لنا الباب إلى مفاهيم أخرى مهمة في البناء المعرفي، في بناء النسق الإسلامي. ما حاجتنا إلى هذا؟

حاجتنا أن مصدر المعرفة لا يطرح لي فقط مفهومًا وكلمة، ولفظًا، سيعطيني حقيقة معلومة. فأنا عندما أقول أن التجربة هي مصدر المعرفة فلأني أستقي من المشاهدة والتجربة معلومة عن الكون وعن الإنسان وعن المجتمعات الإنسانيّة عن خلافه. فإذا كانت هناك معلومة من المصدر الذي أريد أن أدخله في القرآن أوالسنة لا يمكن أن أفهمها ما لم أكن أعرف ماذا يعني القرآن باللفظ وبذلك المفهوم بتطبيقي للمفهوم القرآني في الألفاظ القرآنية والجمل القرآنية. فإذا أضعت المعلومة فإما أتيت بمعلومة خطأ أو أدخلتها في المعلومة التجريبية والعقلية وخرجت بشيء مختلف تمامًا نهائيًا أو أتيت بشيء مخالف لما يقوله القرآن.

هذا المصدر الذي أريد أن أدخله على المصادر المعروفة لا يعطي فقط معلومة وإنما يشكل أيضًا إطارًا. وهذا الأمر أيضًا لا يكاد يكون متاحًا بصورة مناسبة إلا إذا استطعت أن أدخل هذه المفاهيم الحقيقية في هذا النسق المطروح أمامي. فالإطار سيكون متيسرًا، والمعلومة ستكون متوفرة. وربما لسوء فهم المفاهيم الأساسية ظننت أن هذا المصدر حقيقة لا يحوي معلومات ولا يصلح أن يكون إطارًا. وربما لسوء الفهم وصلت إلى النتيجة التي وصل إليها العلماء مع الكنيسة وهي أن نبعد هذا المصدر.

فإذا كانت نظرية المعرفة الإسلاميّة تريد أن تدخل المصدر الحقيقي وهو "الوحيّ" في المصادر المعرفية المعروفة، لا بد من التأكد من أن المفاهيم رسخت ووضحت بحيث نستقي المعلومة التي فيها، ونجد الإطار الصحيح عن المصدر.

ماذا عن المنهج؟

نحن قلنا في بداية الكلام أن هناك موضوعات المعرفة، ومصدر المعرفة، ومنهج تحصيل المعرفة، ماذا يحدث لمنهج تحصيل المعرفة؟ ماذا أحدثنا إذا ضممنا مصدرًا آخر لهذه المصادر؟ واعتمدنا الخبر كواحد من الطرق لتحصيل المعلومة، اعتمدنا الخبر كواحدة من وسائل تحصيل المعلومة؟

إذن أنا أحتاج كثيرًا لأن أعرف الكثير عن الكيفية والطرق لأن يكون الخبر ناقلا للمعلومة الصحيحة كيف يكون صادقًا أو باطلا؟ وهل هذا مرتبط بمن يخبر؟ وهل هذا مرتبط بزمان أو مكان؟ دخلنا في قضايا اللغة التي دخل فيها من قبلنا. اللغة ومعاني اللغة ومعاني الكلمات ودورها في المعرفة. هم دخلوا في نظرية المعاني ونحن ندخل أيضًا ولكن من منطلق مختلف جدًا.

الخبر هو القرآن (كتاب مقروء)، والسنة الحديث (كلام مكتوب). إذًا لا بد أيضًا من التعامل مع الخبر في هذا النسق المعرفي، لكن كيف؟

إذا كانت نظرية المعرفة عندهم تُعني بكل هذه الأشياء، ونحن أيضًا نُعني بها لكن من منطلقات مختلفة، ألا يكون اتفاق بيننا وبينهم؟ ألا نتفق؟

الخلاف الأكبر يأتي هاهنا لأن معرفتنا مؤدية إلى الإيمن بالغيب، والمعرفة عندهم أرادت أن تحذف الغيب. إذن ستنشأ قضايا كبيرة هنا. كيف نبني معرفة الغيب على هذه المعرفة ذات المصادر التي نأخذها من القرآن؟ كيف نبني الغائب على الشاهد؟

في العلوم الطبيعية، عندما عجزوا في الحديث عن القانون الطبيعي وكيفية تثبيته حاولوا أن يخرجوا منه بأن يقولوا هي النظريات العلمية المستقاة من الطبيعة هي مجموعة قوانين متشابكة ومتداخلة ويفسر بعضها بعضًا. لكنهم كثيرًا ما حاولوا أن يفهموا القانون الطبيعي أو النظرية الطبيعية. على أساس أنها تكلّمت فعلا عن هذه المباحث فقط. وإن الأشياء النظرية التي تأتي في أي نظرية علميّة ما هي إلا محاولة للحديث، بصورة مختصرة عن أشياء مادية كثيرة موجودة يدركونها. فإذن نظرية المعرفة الإسلاميّة تحاول أن تنطلق من هذه المصادر ذات البعد الذي فيه الوحي بهذه الطرق لغرض مهم جدًا وهو أن تتحدث عن الغيب.

محاولة استطلاع الرؤية الإسلاميّة

كيف يكون الإيمان صحيحًا؟ لأن إدراك الغيب أو معرفة الغيب هو الإيمان، كيف يكون الإيمان صحيحًا، وكيف نبنيه على معرفة؟

إننا في حاجة إلى أن نستبدلها بنظرية معرفة إسلامية، وهذا هو الذي دعانا جميعًا للتحدث عن إسلاميّة المعرفة. وهذه المحاولات كلها هي أن نعدّل في مصادر المعرفة. ونستخلص الرؤية الإسلاميّة للكون، وأن نعدّل في طريقة مرامي المعرفة، وأن نجعل كل هذا مرتبطًا بعقائدنا الأساسية.

من المعلوم أن مكتبة كاملة لكل واحدة من القضايا التي ذكرناها، إننا في النهاية نريد عندما نراجع ونقرأ كتبنا سواء كانت (Refrence book أو Text book) نكون واعين بأن الشخص الذي كتب الكتاب قد خرج عن نموذجنا أو نمطنا، أو دخل فيها، أو توافق معه أو تعارض فيه، وأنا نفسي أصلحه في كذا، وأن البديل الإسلامي هو كذا.

وهذه القضية ليست قضية فقط (للمزاح). هي قضية كما وضحت ترتبط بماذا نبني هذه المعرفة؟ بالإيمان، وما يرتبط بالعقيدة والإيمان. أعتقد أنه ليس أمرًا هينًا. ولذلك كان كلامي هذا في بعض جوانبه غير واضح.

وهذه المسيرة رغم أنها بدأت من قبل ثلاث عشرة سنة، لكنّها ما زالت تحتاج المزيد من الجهد، وكل هذه محاولات نحاول بها أن نصل لهذه الأهداف، نحاول أن نقدم البديل المعرفي للقضايا التي تطرح في مجال ما يسمى بنظرية المعرفة والتي بقينا ساكتين عنها لقرنين أو ثلاثة.

د. إبراهيم أحمد عمر

إسلاميّة المعرفة وعلاقتها بالعلوم المختلفة

هل نستطيع التفاهم والتعرف على أنه كم نوع من العلوم موجود متداول؟

لدينا العلوم الطبيعية، العلوم الاجتماعية، العلوم الإنسانيّة أو الإنسانيّة الاجتماعيّة (يمكن إدماجهما)، لدينا العلوم النقلية أو الشرعيّة. إذا كانت أنواع العلومثلاثة فكيف نتصور العلاقة بين ما نسميه (إسلاميّة المعرفة) وكل من هذه الأنواع؟ هل هي علاقة واحدة أو علاقات مختلفة؟ إن كانت واحدة فنريد أن نعرف كيف؟ وإن كانت مختلفة فنريد أن نعرف كيف أيضًا.

أنا أزعم إن إسلاميّة المعرفة علاقتها بالعلوم الشرعية أو النقلية هي علاقة وطيدة وأساسيّة، كما سنحاول الكشف عنها فيما يأتي. وهذه العلاقة ينبغي أن نفهمها بأن العلوم الشرعيّة ستأخذ صلاحيّات إضافيّة لكي تهيمن على غيرها وتصبح كل علومنا فتاوى (هذا حلال وهذا حرام).

هناك شيء غير الفتاوى في الدنيا، وهناك شيء غير الفقه ، وإذا كان هناك شيء اسمه فقه، فهناك شيء اسمه فكر، وشيء اسمه علم، وشيء اسمه معرفة، وشيء اسمه عقل، وفيها علاقات متشابكة مطلوب تحديدها.

العلاقة بين الوحي والتدين

الوحي هو السبيل الذي يستخدمه الخالق جل شأنه لإيصال معلومة ما إلى من يصطفيه من رسله سواء كان من الناس أو من الملائكة. لتبليغه شيئا معينًا، إما أن يأمره بتبليغه للآخرين فيكون حامل رسالة، وإما أن لا يأمره بتبليغه للآخرين فيكون نبيًّا فقط، وهذا معروف.

والدين الذي كنا نتحدث عنه هو التديّن وليس الدين ذاته لكن التديّن، يعني حينما أبدأ أنا كإنسان نسبي التعامل مع الدين أحوّله إلى عملية تدين. يصبح شيئًا آخر. تديّني أنا شيء والدين شيء آخر([1]). فقد أسيء التديّن وقد أحسنه. وقد أسيء صلاتي وقد أحسنها، وقد أسيء صيامي وقد أحسنه. وهذا فرق بين الدين والتديّن في هذا الجانب. فنحن نريد أن نكشف شبكة العلاقات بين هذا وذاك.

إسلاميّة المعرفة والعلوم النقلية

[1]- الفرق بين الدين والتدين: الدين بما هو هدى إلهي يتصف بالمثالية والكمال فهو تعاليم يتمثل فيها الحق المطلق بناء على الكمال الإلهي في العلم الشامل بأحوال الوجود والمحيط بمصلحة الإنسان في مختلف متقلبات حياته وهو مطلق عن المقيدات الزمانية والمكانية، وكلي في ذاته ينزع منزع التعقيد العام ولا يقصد إلى الضبط في جزيئات الأفعال الإنسانية. أما التديّن فهو كسب إنساني في تكييف الحياة بتعاليم الدين ويتصف بالمحدودية والنسبيّة. (انظر فقه التدين فهمًا وتنزيلا الجزء الأول ص ٢٨ – ٣١).

أزعم أن إسلاميّة المعرفة تأتي إلى هذه العلوم النقلية، وهذه العلوم النقليّة – كما نعرفها – أو الشرعيّة كما يسمّيها أصحابها حوالي أحد عشر علمًا، استقرت فيما يقرب من أحد عشر علمًا. نصفها يسمى بعلوم الوسائل، ونصف آخر يسمى بعلوم المقاصد، وعلوم الوسائل: اللغة العربية ومن تابعها، وعلوم المقاصد: التفسير والحديث والأصول والفقه كما لا يخفى.

علاقة إسلاميّة المعرفة بالعلوم النقليّة

نرد العلوم النقليّة إلى أصولها (الكتاب والسنّة)، فحينما نأتي إلى أي شيء منقول، إن كنت راويًا فالصحة، وإن كنت مدّعيًا فالدليل. إن كنت تروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثبت لي صحة ما رويت (رواه البخاري ومسلم وفلان وفلان بسند صحيح. ننقد المتن([1])فيثبت لنا صحته، فنقول هذا حديث صحيح). إن كنت مدّعيًا دعوى فالدليل فالدعوى أين تأتي؟ تأتي في الجوانب العقليّة من هذه الأنواع من المعرفة، لأن أصول الفقهكما لا يخفى على طلبة هذا النوع من المعرفة نوعان:

١ - نوع يتعلق بالدليل النقلي فيما يسمونه بالمباحث المشتركة بين الكتاب والسنّة.

٢ - نوع يتعلق بالدليل العقلي الذي هو تعامل الإنسان مع النص، كالقياس([2])، والاستحسان([3])، والاستصحاب([4])، والمصلحة، ورفع الحرج، والأخذ بالأخف، والأخذ بالأقل وغيرها.

كل هذا النوع من الأدلة هي عبارة عن أدلة عقلية نحاول أن نولّد منها دليلا نقليًّا أو دليلا شرعيًّا ندخله في فقهنا فيوضع إلى جوار الدليل المأخوذ أو الفقه المستنبط من النص سواء بسواء.

إعادة النظر في التعامل مع الكتاب والسنّة

ماذا أفعل بإسلاميّة المعرفة؟ أريد إعادة النظر في التعامل مع الكتاب والسنّة وجعلهما المصادر الأساسيّة. باعتبار الكتاب الكريم المصدر المنشئ لهذه الأحكام. وباعتبار السنّة المصدر المبين على سبيل الإلزام لهذه الأحكام. ثم أقوم بمراجعة هذا التراث، فأي شيء يتعارض مع هذا أرفضه. آتي إلى علوم الوسائل أجد أن علوم القرآن وعلوم السنّة التي أسّسها أسلافنا كانت عبارة عن استجابتهم لجدلية النص والواقع. وهذه علوم لخدمة النص

---

١ - السند هو سلسلة الرجال الذين رووا الحديث فلان عن فلان.... أما المتن فهو أصل الحديث الذي ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

2- القياس: كأن تقيس على الخمر وهي أصل محرم فرعًا آخر كالنبيذ وغيرها حيث أنهما يشتركان في علة واحدة هي الإسكار فتجعل لهما حكمًا واحدًا هو التحريم. قال الغزالي: هو حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما لأمر جامع بينهما من إثبات حكم أو صفة أو نفيه عنهما.

3- الاستحسان: كثيرًا ما يرد في كلام فقهاء الحنفيّة ويجعلونه في غالب الأحيان في مقابلة القياس فيقولون القياس يقتضي الحظر والاستحسان يقتضي الإباحة.

4- الاستصحاب: في اصطلاح الأصوليين هو إبقاء ما كان أو الحكم ببقاء ما كان.

كي تربط بينه وبين الواقع. هذه العلوم أقوم بمراجعتها وأحتاج إلى إضافة. وأحتاج إلى تعديل. ماذا يعني إذًا هذا الذي نسمّيه إسلاميّة المعرفة، يسخر البعض ويقولون ماذا تريدون أن تؤسلموا؟ أتؤسلمون الحديث؟ أتؤسلمون التفسير؟ أتؤسلمون السنّة؟ نعم، نؤسلم كل هذا. ولكن بأي معنى؟

بالمعنى الذي أشرت. إن العلوم التي تدور حول النص أو ما يسمى بالعلوم النقليّة أو العلوم الشرعيّة الموروثة هي كما أشرت قسمان: علوم وسائل وعلوم مقاصد. تتم عملية الأسلمة من خلال مراجعة هذه الأنواع من المعرفة ومحاولة الكشف عن مدى ارتباطها بالكتاب والسنّة على مستوى فهمنا المعاصر منشئ – كما قلت – بالنسبة للكتاب ومصدر مبين بالنسبة السنّة النبويّة المطهرة.

علاقة إسلاميّة المعرفة بالعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة

الجانب الآخر هو العلوم الاجتماعية، فما هو موضوعها الأساسي؟ المجتمع. المجتمع نظمًا. المجتمع علاقات. المجتمع بشرًا. المجتمع حياة وسلوكًا وقوانين.. الخ. والعلوم الإنسانيّة تتعامل مع الإنسان نفسه، نوازعه، ميوله، سلوكه، وكيف يستقيم، كيف يعوج.

أزعم أن المرجع الأساسي للقرآن الكريم هو الإنسان فردًا، الإنسان مجتمعًا. فلا يستطيع إنسان أن يقول لا علاقة بين قضية الأسلمة أو بين الإنسان وبين المعارف. فهذه المعارف الاجتماعيّة والإنسانيّة هي معارف القرآن الكريم نتناول فيها مؤشرات في غاية الأهمية وفي غاية الخطورة يمكن الكشف عنها بسهولة فائقة، إن القرآن الكريم تكلم عن الفرد، تكلم عن المجتمع، تكلم عن الأسرة، تكلم عن الإنسان، تكلم عن الأمم كيف تنشأ، الأمم كيف تتقدم، الأمم كيف تتراجع. العمران كيف يبنى ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (سورة هود، الآية ٦١)، فإذن العلاقة وثيقة بين قضية الأسلمة وبين العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، وبشكل لا ينكر.

إسلاميّة المعرفة والعلوم الطبيعية

بقيت عندنا العلوم الطبيعية ماذا أفعل عندما أريد أن أُسلم الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات أو الإحصاء؟ وهل الأسلمة تدخل في هذا الموضوع؟ نعم، إن طبيعة البعد الخطير هو أن العلم الغربي، خاصة التجريبي، نشأ في ظل أفكار أساسية أهمها أن الإنسان أعلن موت الإله كما فعل "نيتشه"([1]).

---

[1] - فردريك نيتشه فيلسوف ألماني بشر بالإنسان الأعلى أو السوبرمان ولد عام ١٨٤٤ م وتوفي عام ١٩٠٠م.

وأعلن مركزية الإنسان وسيطرته على كل شيء. وبدا يتعامل مع الطبيعة وكأنه مالكها وقاهرها، الجبار عليها، ونسي قضية الاستخلاف ونسي الأمانة ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٧٢). ونسي العهد ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٧٢)، واستمر بهذا الشكل. ثم بنى هذه العلوم على هذا.

انظروا مطلع الآيات الأولى التي أنزلت من القرآن ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ والخمس آيات الأولى بعدها، والسادسة ﴿كلا إن الإنسان ليطغى، إن رآه استغنى﴾، فحضارة الاستغناء. فكر الاستغناء عن الإله، مركزية الإنسان، الإنسان هو إله نفسه، الإنسان هو إله الطبيعة، الإنسان هو إله الوجود، كانت هذه نتيجة وضعيّة العلوم التجريبيّة في نهايتها، فما الذي أعطتنا؟

كما يقول جارودي[1]: الآن كم جائع في شوارع الصومال أو شوارع مالي أو شوارع بنغلاديش يموت من الجوع من المئات التي تموت مطلع كل شمس ومغربها في العالم، كل واحد من هؤلاء لا يملك رغيف خبز، ولكنه يملك في الرصيد الأوربي والغربي أربعة أطنان ونصف من المتفجرات، لأن هذه الحضارة الطاغية توجهنا لتحطيم الطبيعة، الآن يقولون لنا "طبقة الأوزون"[2] خرقت، والبيئة دمرت، والأسماك اعتدي عليها وتموت في المحيطات، وغير ذلك، فأصبح هذا الإنسان في إطار هذه العلوم طاغية مستبدًا في الكون كله، مع أنه هو مؤتمن عليه.

هؤلاء يقتلون ملايين من البشر. يجوعون ملايين. يبيدون ملايين، الإنسان سلعة في ظل هذه الحضارة، قيمته بما ينتج ولا قيمة له فوق هذا.

لذلك الآن الجدل الذي يدور في الأوساط الطبية الغربية حول أن المصاب بالسرطان أو بأي مرض لا يرجى برؤه أيهما أحسن وأريح له ولعياله، نقتله بمجرد كشف المرض، وننهي حياته، أم نحاول أن نصبر عليه؟ هناك جدل كثير في هذه..لماذا؟ لأن فلسفة العلوم الاجتماعيّة والرؤية الماديّة للإنسان والنظر إليه مع هذا الطغيان والتمكن من العلم التجريبي أدى إلى طغيانه.. إلى نسيانه لنفسه. فإذا أنا آتي إلى هذه العلوم التجريبية أريد أن أعطيها

---

[1] -روجيه جارودي، مفكر فرنسي مشهور، أسلم وتسمى بـ (رجاء جارودي) وهو من المشتغلين بقضايا الفكر الإسلامي.

[2] - يتكون الغلاف الجوي من عدة طبقات هي: التروبوسفير والاستراتوسفير والميسوسفير والتيرموسفير وأدنى هذه المناطق هي التروبوسفير وتمتد من سطح البحر حتى ارتفاع ثمانية أميال وتوجد في هذه المنطقة طبقة (الأوزون) التي تمتص الطاقةالشمسية والاشعاعات فوق البنفسجية التي تضر بالإنسان وتشكل خطرا كبيرا ولقد لاحظ بها العلماء خرقا في الآونة الأخيرة.

الوجهة... وأسلافنا كانوا يقسمون العلوم إلى ممدوح ومذموم... وفي عصورهم نشأ حوالي مائة علم.

ربط العلوم بغاياتها في الرؤية الإسلاميّة

الفخر الرازي كانت عنده موسوعة اشتملت على ذكر مائة علم في ذلك العصر. في هذه المائة علم يبين ما هو ممدوح وما هو مذموم.. يذكر مثلا السحر بين العلوم المذمومة، وله فيه كتاب سماه (السر المكتوم في معرفة السحر والنجوم).

الآن لم يعد الإنسان يفرق بين علم مذموم وعلم ممدوح، فحينما يسألك عالم التجريب، ما علاقة إسلاميّة المعرفة بعلمي؟ أنا رجل أدخل المختبر وأتعامل مع مادة، فما دخل الإسلامفي هذا؟ أقول له إن الإسلام يعطيك الوجهة... ويعطيك الإتجاه... ويجعل لعلمك غاية... ويجعل لعلمك مقصدا... ويفرض عليك البحث عن النافع والضار، الممدوح والمذموم...

إذًا مستويات العلوم المختلفة هي في حاجة إلى هذا الذي نسميه إسلام المعرفة أو سمّه ما شئت الربط بين غاية المعرفة ومقاصدها. والخروج من (فكرة الفن للفن[1] والعلم للعلم) وغيره من الشعارات المطروحة.

---

[1] - مقولة (الفن للفن) هي مقولة أدبية تسعى إلى أن لا تجعل للأدب أو الفن غاية غير الجمال ولا يعالج بذلك مشكلة من المشاكل بالضرورة ولا يخدم أيدلوجية معينة وقد ظهرت هذه النزعة في المدرسة التي عرفت (بالبرناسية) ومن أنصار هذا الاتجاه (كانت) و (لو كونت دي ليل) وغيرهم وقد جاء هذا التيار كرد فعل لتيار الأدب الواقعي في الفكر الاشتراكي الذي يحاول توجيه الأدب ويجعله خادمًا لأفكاره.

وظيفة الإيمان بالغيب

إذا تحدثنا عن الغيب فإن ما لا نعرفه الآن قد نكتشفه ونعرفه بعد أسبوع، بعد شهر، أو بعد سنة، وقد تكتشفه أجيال بعدنا، فهذا يمكن تسميته غيبًا([1])، لمجرد تقريبه إلى الأذهان، أما الغيب المطلق فهو ما اختص الله تعالى وحده بمعرفته. فالوح مثلا ما هي؟ وكيف يتم الخلق؟ وما شأن الله تعالى الآن؟.

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨٥)، هذا غيب. وقال أيضا: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ (سورة غافر، الآية ٥٧) وهذا أيضا غيب. وقال: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ (سورة الرحمن، الآية ٢٩) هو غيب أيضا.

فالله سبحانه حين أمرنا بالإيمان به لم يأمرنا بالإيمان مع الغفلة الكاملة عنه، وإنما أمرنا بالإيمان به لأداء وظيفة ما في حياتنا، فإيماننا به يؤدي دورًا ما، يؤدي وظيفة ما في حياتنا.

علينا أن نبحث عنها سواء كانت غيبًا مطلقًا أو كان غيبًا باتجاهنا. وكيف ننظم جانب تعاملنا معه؟

تحديد العلاقة بين الغيب والكون والإنسان وتنظيمها

هذه القضايا الثلاث: الغيب.. الكون.. الإنسان..قضايا أساسية مطلوب تحديد العلاقة بينها بمنتهى الدقة وبمنتهى الوضوح في الوقت ذاته وإلا فإنسان سوف يكون مشلولا أو نصف مشلول عن أداء دوره إذا لم يفهم هذا حق الفهم ولم يدرك طبيعة العلاقة بين هذه الأطراف الثلاثة أو تنظيم العلاقة بينها لو اختلت العلاقة بين الغيب والإنسان لا يستقيم أمر دين ولا أمر دنيا. لو اختلت العلاقة بين الغيب والطبيعة والإنسان يحدث الخراب نفسه. فلا بد من شيء ثان.

فحينما نؤمر بأن نؤمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر، ونؤمن بأن الله جل شأنه يتصف بكل صفات الكمال، ومنفي عنه كل صفات النقصان، وله الأمر وله الحكم وله القدر وله المشيئة وله الإرادة.

---

[1] ـ الغيب هو ما غاب عن الحواس وكل شيء مستور فهو غيب. هذا من ناحية عامة. أما الغيب المطلق فهو ما لا يدرك حسًّا قال الراغب الأصفهلني: الغيب: ما لا يقع تحت الحواس (انظر: مفردات القرآن الكريم للراغب ص ٣، وصفوة التفاسير ج ١ ص ٢١).

والنبوة صفاتها كذا وكذا ودورها كذا، وواجب الأنبياء كذا وما يستحيل عليهم كذا، الكتب السماوية وصفاتها، القدر، اليوم الآخر.

هذه كلها لتنظيم العلاقة بين الأطراف الثلاثة، يعني أن نؤمن بكل هذا الذي ذكر. فالنتيجة ينبغي أن تكون لتنظيم العلاقة بين هذه الأطراف الثلاثة، إذا لم يحصل معنى ذلك أن هناك خللا في هذا الذي سميناه بالعقيدة.

تقريب المسألة للأذهان وإفادة التصور

ومصطلح العقيدة طارئ نشأ في العصر العباسي وربما بدأ استعماله في العصر العباسي أما قبلا فلم يستعمل المسلمون إلا كلمة الإيمان، العقيدة تبين لنا الغيب ما هو؟ فهي لم تطلب منا أن نؤمن بمجهول. عرفته لنا، وصورته، ثم أمرتنا بالإيمان به.

لو قرأنا القرآن تفصيلا لوجدنا أن آيات كثيرة تتناول أمورًا لا يريدنا أن ندخل في تفاصيلها. فيجب أن نفهمها بقدر معين يكفي لإفادة التصور، ولكن لسنا مسئولين عن التفاصيل الدقيقة وراء ذلك.

نجد عالمًا آخر، عالم النشوء. الخلق، خلق السموات، خلق الأرض، خلق البحار، خلق الإنسان...الخ. آيات كثيرة جدا في كتاب الله تتناول قضايا الخلق، قضايا النشوء، كيف جعل الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء الموجودة في الكون؟ كيف خلقها؟ لماذا خلقها؟ كل ما يتعلق بها تقريبًا يأخذ محورًا أساسيًّا من محاور القرآن.

وهناك أشياء أخرى، آيات أخرى نقرؤها فنحس ونفهم أن الله سبحانه وتعالى، إنما يريد أن يتحدث عن إرادته جل شأنه ومتعلقات هذه الإرادة على اختلافها، يريد أن ينبه إلى أن هناك دائرة من الدوائر التي ينبغي أن نلتفت إليها. ألا وهي (دائرة الإرادة).

فكأنما هناك جانب أو محيط أو دائرة نسمّيها دائرة الأمر، ومحيط آخر (دائرة الخلق أو النشوء) ومحيط آخر وسط بين الاثنين دائرة الإرداة التي تأخذ من الأمر، وتحول إلى النشوء وإلى عالم الأشياء. كل هذا من أجل أن نعطي تصورًا دقيقًا للكون، لأنفسنا، للحياة، لدورنا فيها، للعلاقات الموجودة.

التطلع الإنساني

الإنسان بطبيعته لديه أسئلة دقيقة وكثيرة جدا، يولد ومعه هذه الأسئلة، انظر إلى طفلك وهو لا يزال في الأشهر الستة الأولى. يحاول أن يمسك بأي شيء حوله. يحاول أن يكسر أي شيء حوله، يحاول أن يلتفت يمينًا ويسارًا، يريد أن يعرف، وكثير من اضطراباته وتكسيره وتخبيطه للأشياء هي عبارة عن منهج الطفل للحصول على المعرفة. لم يستطع أن يعرفه فيكسره، أنت تفهمه على أنه عمل تخريبي، ولأنه طفل لا يفهم ولكن كان يحاول الفهم،

وعملية التكسير هي منهجيته ومستوى عقله أو لنقل – نستعير التعابير الاقتصادية – في مستوى سقفه المعرفي. إن طريقة المعرفة أن أكسره حتى أرى ما بداخله، أو ما هو؟ اكتشف حقيقته. فهناك سؤال ما هو؟

يريد الجواب عنه (ما هو) سؤال عن الحقيقة، عن الماهية، عن مركبات الشيء. وقد يسأل أو يطرح سؤالا: أي شيء هو؟ وعنده سؤال: كيف حدث هذا؟ وعنده سؤال: لماذا؟ فهناك سلسلة من الأسئلة بعضها وارد وبعضها غير وارد، وبعضها مهم وبعضها لا أهمية له؛ لكنها أسئلة تدور في الذهن الإنساني لأن الله جل شأنه فطر الإنسان على أن يكون تطلعه إلى المعرفة. مفطور على هذا، وضع فيه هذه الطاقة الكامنة لتوليد أسئلة والبحث عن إجابات عنها.

المصدر الخارجي للمعرفة

ومن حكمته جل شأنه ورأفته ورحمته بهذا المخلوق ميز سبحانه وتعالى بين الإجابات التي يمكن أن يصل إليها بنفسه وجهده والإجابات التي لا يستطيع إلا إذا حصل عون خارجي.

لا بد من مصدر خارجي، يعرفه الجواب، فطاقاته لا تستطيع أن تصل به إلى جواب دقيق، وسيدنا إبراهيم عليه السلام نموذج على هذا.

عرض ربنا سبحانه وتعالى علينا قصته بطريقة ما، أنه: ﴿رأى كوكبًا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لأن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ (سورة الأنعام، الآية ٧٦ -٧٩)، ﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني﴾ (سورة الأنعام، الآية ٨٠).

هناك أسئلة مهمة يبحث بنفسه عن الجواب عنها. وهي مهيأة، مبثوثة. الجواب موجود، ولكن يحتاج إلى بحث. وهذا لا بد أن يقوم به هو.

توازن النموذج المعرفي

وتوضيح للعلاقات الأساسية الدقيقة للوجود من حوله، غيب، خلق إنسان. إذا آمنت بالله أدركت أني مخلوق وأن الكون من حولي أيضًا مخلوق. النبوة مصدر معرفة لي، تدلني على خالق، تنبهني إلى كثير من الأمور. مرجعية بالنسبة لي. وأنا أحتاج إلى مرجع، إلى مصدر.

استقامة الرؤية للعوالم الأخرى

إيماني بالملائكة إيمان بوجود عوالم أخرى، إنني لست الوحيد المتصرف في هذا الكون إنما أعيش مع عوالم أخرى على أن أتواضع وأدرك حجمي في هذا الملكوت الواسع. وأعرف طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون بيني وبين هؤلاء.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نظم في أحاديث كثيرة جدًا نفهمها طبعًا بطريقتنا الفهم الجزئي، ولكن هي كلها تصب في إطار البضع وسبعين شعبة. فعندما يقول: "الشجر يسبح، الحجر يسبح، أحد جبل نحبه ويحبنا" يحاول أن يضع صورة، يرسم لمن حوله تصورًا، يضعه في عقولهم، يضعه في أذهانهم، ليؤدي هذا التصور وظيفة أساسية. فكل عنصر من عناصر الإيمان أو العقيدة حينما نفكر فيه نحاول أن نقوم بعملية تحليل دقيق له نجد أنه يقدم لنا بعدًا أساسيًا وقاعدة ودعامة أساسيّة يقوم عليها جانب خطير من تصورنا الكلي. ويقدم لنا إجابات عن بعض أو أهم الأسئلة النهائية، وجزء أساسي من وظيفة الإيمان أو العقيدة بعد بقاء التصور وتحديد مكوناته أن يقدم ما نسميه بالرؤية الكلية للكون وللإنسان والحياة. هذه الرؤية الكليّة هذا الذي يسمّيه البعض نموذجًا.

كل هذا عبارة عن الذي نسمّيه الرؤية الكليّة التي تقدمها العقيدة بالنسبة لنا كمسلمين حين تقدم العقيدة لنا هذا تقوم بعمليّة بناء ما سمّاه "كونت" (بالنموذج الكلي)، أو ما يمكن تسميته (بالرؤية).

هذا النموذج وهذه الرؤية هي عبارة عن العدسة الموجودة تقريبًا في هذا الجهاز (الكاميرا) ونهوه. تعكس فيها كل ما تراه ثم تأتي بصورة كل شيء بحسب الوظائف التي حددت للجهاز. فالإنسان صاحب عقيدة ما أو رؤية ما، هذه العقيدة تسمى (نموذجًا).

تقديم التفسيرات

في دائرة هذا النموذج... وفي دائرة هذه الرؤية، يبدأ النموذج بتقديم تفسيرات ويعطيني تفسيرًا لما حولي. أسأل أحيانًا لماذا خلق ربنا الذبابة؟

أحد المؤلفين ألف كتابًا قد يكون سماه لماذا خلق الله الفرس والذبابة؟ قد يكون السؤال تافهًا. أو ما يسميه المغاربة إشكالية الكتاب قد تكون تافهة، ولكن لا بأس فقد وردت وأثيرت. لماذا خلق الله الكلاب؟ لماذا خلق الله كذا وكذا؟ أحيانًا يطرح الإنسان بعض التساؤلات. النموذج في ذهنه يعطيه جوابًا مباشرًا.

أيفترض فيه القدرة على هذا، الذباب له دور في الحياة، هذا الدور قد لا أعرفه أنا؛ لأني لا أشتغل بعلم الحشرات لكن يعرفه عالم الحشرات.

اختلال النموذج المعرفي

١ - اختلال النظرة للعوالم الأخرى:

ماوتستونج([1]) سأل مرة كم تأكل العصافير من الحنطة في الصين؟ فذكروا له ملايين الأطنان. قال هذا معناه إننا نقدر أن نعيش بهذه الأطنان ملايين الصينيين.. فلماذا أترك العصافير؟ فأمر بقتل العصافير،وأعطى الجوائز لكل من يأتيه بعصفور. واستمرت حملة مكافحة العصافير إلى أن قضوا عليها. فظهر عندهم شيئ ما، نبات له وظيفة ما في جسمه، فغريزيًّا يذهب العصفور ويقطعه ويأكله. هذا النبات كان يفني من الحنطة أضعاف ما كانت تأكله العصافير، فاضطروا أن يربوا عصافير جديدة ويطلقوها في الغابة.

لو أن النموذج الذي في رأس (ماوتستونج) كان مختلفًا ويستطيع أن يقول كما يقول الفلاح البسيط عندما يبذر البذر: للناس ثم للطير، ولي ما قسّم الله. هذا بكل بساطة نموذج جعله يدرك أن عليه أن يبذر والله سبحانه وتعالى هو الزارع وهو الذي ينبت ويرزقني منه ويرزق سواي.

لكن (ماوتستونج) كان يحمل نموذجًا آخر. نموذجًا ماركسيًّا. والنموذج الماركس يؤمن بأن الطبيعة صراع.

وأمريكا في أيام (ريجان) أعطت جوائز للفلاحين الذين استجابوا لنداء (ريجان) بعدم زراعة بعض المواد منها الحنطة والقمح الأمريكي معروف.

. كان يصل لكل مكان هدايا ومساعدات، لأنه لديها كميّات هائلة من القمح تفيض عن الاستهلاك. ويلقى بالمحيط أيضا عدد كبير جدًا من الأطنان! لأنهم لا يريدون أن ينخفض السعر. وانخفاض السعر معناه خلل بالنسبة لاقتصادياتهم المبنية على نموذج آخر، بدلا من أن نلقي القمح بالمحيط يجب أن نعطيه لشعوب أخرى.

٢ - التحلل الأخلاقي:

وممارسة الجنس صناعة رائجة ومربحة جدًا، مومسين، وساقطين، ثلاثة يمارسون الجنس ويصورون ويبيعون، هذا حدث عندما اختل النموذج، خرجت إحدى المومسات في إحدى التلفزيونات الأمريكية حاصلة على درجة الماجستير، ولكنها تمارس البغاء وحرفتها الأساسية هي البغاء.

ونوقشت في هذا الموضوع، وتحدثت عن نفسها بكل فخر، فقالت: اشتغلت صيدلانية وكان دخلي محدودًا، ثم اشتغلت في هذه المهنة فازداد دخلي، مع نوع من المتعة وفيها دخل، فلم

[1] - ماو تستونج زعيم صيني اشتراكي شهير.

لا؟ القيمة الأساسيّة، النموذج، الرؤية إلى الكون، النظر إلى الإنسان جعلها تتصرف بهذا الشكل.

العقيدة والنموذج الكلي

فإذا كان هناك نموذج توجده هذه العقيدة من خلال ما أوضحته، طبيعة الكون والإيمان به، الإنسان معناه، الغيب معناه، العلاقة بين هذه الأمور الثلاثة لكان الأمر مختلفاً. هذا النموذج أصبح وسيلة تفسير، وأداة تحليليّة، وأداة نقديّة، وأداة لتوليد أنواع من المعرفة من خلال الكشف عن علاقات مختلفة. فقد تحدث لدى الإنسان عملية استحسان لشيء قد لا يعرف تفاصيله لكن يستحسنه. وأحياناً يستقبح شيئاً وينفر منه دون إدراك كامل لحقيقته. ولكن يحس هذا الاستحسان أو هذا الاستكراه. ما الذي جعله يحس بهذا خاصة الأمور غير الحسّيّة؟

نموذج كلي هو هذا النموذج الذي تولد عن عقيدة، تصور كامل بمقوماته وبخصائصه بنى نموذجًا كليًّا.

النموذج الغربي

نأتي إلى النموذج الموجود الآن، مثلا في الغرب الذي يجعل امرأة تنظر لجسمها، هناك قضايا الإجهاض. (هتلر)([1]) ماذا فعل؟ (هتلر) في الحقيقة والنموذج الكامن في رأسه كان العنصرية. إن الشعوب الأخرى غير الشعب الألماني، شعوب من الدرجة الرابعة في الغرب المنتج هو الإنسان الجدير بالحياة والآخرون غير المنتجين ليسوا كذلك، فإذن لا مانع من أن نتخلص منهم. النموذج الغربي يرى فيهم عالة على المجتمع ينبغي التخلص منهم بطريقة أو بأخرى وهذا التخلص يبحث فيه عن أفكار مختلفة لأن الفكر الاقتصادي والنموذج الاقتصادي ونموذج المنفعة المباشرة كان هو النموذج الذي يحمل الناس على التسلط.

تعطيل وظائف العقيدة

إذن العقيدة يمكن أن تكون دعامة وقاعدة لنظام معرفي كامل يعطينا نموذجًا كليًّا، ويساعدنا على توليد النماذج الفرعيّة. منهج وشرعة ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ لكن المسلمين للأسف الشديد غفلوا عن هذا. هذا النموذج أصبح قاصرًا، ضيقًا، محدودًا.

روى لي الشيخ (القرضاوي) أنه صلى الجمعة في إحدى مدن الخليج واستمع للخطيب وهو يخطب ويقول: الحمد لله الذي سخر لنا هؤلاء الأمريكان، يستخرجون البترول ويصنعونه

---

[1] - هتلر، زعيم ألماني نازي شهير. فضل هتلر الشعب الآري وزعم أن الدماء الآرية هي أنقى الدماء وأفضلها وكانت هذه هي أيديولوجيته التي بنى عليها ومنطلقه الاول في النازية.

ويبيعونه ويأتوننا بالسيارات الفارهة والمساكن العالية لنسبح بحمد الله ونتفرغ لعبادته، هذا لو كانت العقيدة – عنده – واضحة ومكونة رؤية، ومؤيدة وظائفها في نفسه وفي عقله، وصانعة النموذج الكلي ما حدث هذا. وعليه أن يعرف أن تسبيحه هذا الكفر أهون منه، لأن الكفر أنواع: هناك كفر باللسان، وهناك كفر بطر نعمة، لقد أعطانا ربنا الأرض والماء والهواء. وتظل بعد ذلك عاطلا تسبح الله. فأنت لِمَ تسبح الله.

بلاد المسلمين الآن ثلاثة: بلاد فيها الناس يموتون من الجوع (مالي، الصومال، بنغلاديش) اللاجئون الآن أكثر من خمسة وأربعون مليون حوالي ٨٢% منهم مسلمون. لو أن العقيدة مفهومة بشكلها الصحيح وقائمة بوظائفها المعرفيّة ما كان أن يحدث هذا إطلاقًا. ولكن هذه العقيدة خامدة في النفوس والقلوب.

اختلاف الأنظمة المعرفيّة

إذن نرجع إلى أن هناك أنظمة معرفيّة في العالم كله:

نظام وضعي يتجاهل الغيب تمامًا، قد ينكرونه وقد يتجاهلونه فقط، وهذا هو النظام المعرفي العلماني أو الوضعي، وهو جانبان جانب ملحد ينفي الغيب، وجانب لا ينفيه ولكن يقول لا يهمني أن يكون هناك غيب، فأنا أتعامل مع واقع وأشياء موجودة فقط.

وهناك نظام آخر يقابله: النظام الديني الذي يقوم على الإيمان بالغيب وعلى أن هذا الكون فيه هذه الأطراف الثلاثة وأن هناك علاقات لا بد أن تكون واضحة في هذا كله، إذا وضح هذا، فما هو نظامنا المعرفي القائم على هذه العقيدة؟

العقيدة والنظام المعرفي

أنا أستعمل النظام المعرفي استعمالا آخر، النظام المعرفي عندي يقوم على العقيدة التي تعطيني التصور ومقوماته، النظام الكلي وتجيب عن الأسئلة النهائية.

فإذن النظام المعرفي عندي عبارة عن مظلة تندرج تحتها كل ما نسميه بقضايا المعرفة، وأنا أزعم أن العقيدة الإسلاميّة أساس صالح لبناء النظام كله، النظام المعرفي. كما يمكن أن تعطيني نظرية، وتعطيني رؤية، وتعطيني نموذجًا كليًا، وتعطيني نموذجًا لتصنيف المعرفة، وتعطيني نموذجًا للتاريخ.

النموذج الوضعي

والنموذج الوضعي على سبيل المثال في هذه النقطة يرى أن المعرفة قضية كان الإله كبير الآلهة يعتز بها ويمسكها عن الإنسان خوفًا منه أن ينازعه سلطانه. لأنهم مشركون آخذون عن الإغريق.

الإغريق كان عندهم هناك آلهة كبيرة وآلهة صغيرة، أحدهم سرق سر المعرفة من الإله الأكبر وأعطاه للإنسان، فغضب عليه الإله الأكبر وعذبه عذابًا شديدًا. هذه الأسطورة موجودة حتى الآن.

من يقرأون في الفكر الغربي بأي مجال من المجالات المتعلقة بنظريات المعرفة يعرفون أن هذا الأثر موجود لا يزال حتى الآن.

النموذج الإسلامي

أنت نموذجك أو نظامك يقول: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ (سورة البقرة، الآية ٣١)، خلقه وبعد أن خلقه ونفخ فيه الروح أسجد له ملائكته، وهذا يبرر استخلافه.

علمه الأسماء كلها وأتى به وقال للملائكة: ﴿ **أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {٣١} قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {٣٢} قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ **(سورة البقرة، الآية ٣١ -٣٣).**

المعرفة أباحها لك الله جل شأنه، وهو الذي أسسها لك وهو الذي علمك وهو الذي والى إرسال الرسل. وأنزل عليك الوحي واصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس، لذلك كان علماؤنا يتحرجون من أخذ أجر على التعليم ويكتفون بالأوقاف البسيطة، وبعضهم يحترف حرفة، فتجدون الإسكافي، الزجّاج، النجار، ابن البناء، يذهب في الصباح يدرس ثم يذهب إلى السوق، الخباز، الإسكافي....الخ، لماذا؟ لأن النظام المعرفي الذي عاش عليه نظام يرتبط بالعقيدة ويرتبط بالإيمان. فهذا الأمر لا بد أن نكون منتبهين له.

فإذن لدينا نظام معرفي بمجموعته الكاملة بكل تفاصيله قائم على العقيدة.

نتيجة تعطيل العقيدة عن النظام المعرفي

لو اختل النظر إلى العقيدة يحدث فينا ما هو حادث الآن، أكثر الناس صفاء في عقيدتهم أكثر الناس إصرارًا على تجاوز قضايا المعرفة هذا النظام المعروف الآن منزوي، منكمش، النظام المعرفي الإسلامي، مقهور، منحسر، في بلادنا وبلاد غيرنا.

هيمنة النظام الوضعي

والنظام المعرفي السائد هو النظام المعرفي الوضعي سواء في مجال العلوم الطبيعية التي لا يزال الغرب هو المتحكم بفلسفتها، أو العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة التي لا يزال الغرب أيضا متحكمًا فيها حتى أنه بدأ يخترق بعض مجالات العلوم الشرعيّة. الآن الدراسات المقارنة بين الشريعة والقانون – تنبثق من نفس النظرية القائمة على ذلك النظام المعرفي الوضعي.

فعندما تأتي وتقوم بعملية مقارنة بين هذا وذاك وأنت في غفلة عن قواعد الانطلاق المعرفي وكيف تتكون المعرفة. والنظم المعرفية والنماذج الكليّة والجزئية كيف تكون فبطبيعة الحال تكون معرضًا لعملية الاختراق حتى في هذا المجال الفقهي.

ومعظم الدارسين في الغرب للدراسات الإسلاميّة الآن يدرسونها في دائرة ذلك النموذج الكلي الغربي، وفي إطار تطبيقاته، وفي إطار رؤيته، شئنا أم أبينا، حتى في الدراسات الدينية نحن في حاجة إلى أن ندرك هذا الأمر، ونعرف أن هناك عقيدة ولها وظائف معرفيّة، ووظائفها المعرفيّة هي التي أشرنا لها باختصار. وأن هناك نظامًا معرفيًّا يقوم بأكمله على هذه العقيدة، فإن اختلت اختل وإن استقامت استقام.

مفهوم الاصطلاح

نعني بالجمع بين القراءتين، الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون، والجمع بين القراءتين فكرة تقوم على أن الكون كتاب الله المخلوق المادي المجسم، وأن القرآن كتاب الله المنزل، وأن الكتابين في كل منهما مؤشرات تهدي إلى الآخر، فإذا كان القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من المؤشرات التي تدعونا إلى النظر في الكون والتدبر في قضاياه وبذل الجهد في استنباط قوانينه والقواعد الأساسيّة التي يقوم عليها، فإن في الكون دعوة مماثلة للوصول إلى القرآن الكريم.

التعادل بين القرآن والكون

كذلك هنا فرضية أخرى تنطلق منها هذه القضية (قضية الجمع بين القراءتين) وهي أن هناك تعادلا بين القرآن والكون([1]). نعني بهذا التعادل أن القرآن يستطيع أن يستوعب الكون وحركته، بمعنى أن في القرآن قواعد هداية قادرة على استيعاب حركة الكون، وأن الله جل شأنه جعل أمره بين كتابين: الكتاب المنزل والكتاب المخلوق.

وجعل للإنسان عينين يقرأ كلا الكتابين، وأن سورة العلق وآياتها الخمس الأولى هي أول ما كان من القرآن نزولا بإجماع العلماء خلافًا لجابر بن عبد الله([2]). إذ كان يرى أن أول ما نزل (المدثر)([3]) وأول سورة العلق هي: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١} خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق، الآيات ١ -٥) يتكرر الأمر بالقراءة مرتين، وأجمع العلماء على أن ليس في القرآن تكرار وكل حرف له موقعه ووظيفته وأداؤه.

العناصر المعرفية الثلاثة

كل هذا يشير إلى أنا بين ثلاثة عناصر هي:

---

[1] - في إطار التعادل بين القرآن والكون يقول الله تعالى ''فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم'' حيث يقسم بعظمته الكون المادي، ذلك الكتاب المنظور على عظمة الكتاب المسطور، والقرآن عند النظر إليه بشموليه نراه يشبه الكون الكبير، بل نجد أن للقرآن كونًا معنويا يضارع الكون المادي الذي خلقه الله سبحانه وتعالى (انظر: كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، ص ١٠١)

[2] - جابر بن عبد الله، صحابي مشهور من الأنصار روى كثيرًاعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

[3] - أصح الأقوال إن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ''اقرأ بسم ربك الذي خلق'' ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما، عن عائشة قالت: (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيها الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ويرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء...إلى آخر الحديث). وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى: ''يا أيها المدثر'' لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ''يا أيها المدثر'' وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة (اقرأ) فإن أول ما نزل منها صدرها ولم تنزل كاملة. (انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ٦٥ ـ ٦٦)

١ - القرآن([1])،
٢ - الكون([2]).
٣ - الإنسان([3]).
الإنسان يقرأ في الكون ليهتدي إلى القرآن، ويقرأ في القرآن ليهتدي إلى الكون، وأن القرآن يحمل القدرة على هداية الإنسان إلى التجديد. والكون عندما يرتبط بعناية العالم كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾([4]) فإن هذا الكون فيه ما يفسر القرآن ويوضحه بشكل لا مثيل له، لهذا جاءت فكرة (الجمع بين القراءتين)...

الجمع بين القراءتين في التراث الإسلامي

نجد الفكرة عند الحارث المحاسبي([5]) في كتابه (العقل وفهم القرآن)... فقد وردت فيه اشارات لمعادلة القرآن للكون. وفي الوقت نفسه نجد الفكرة نفسها عند محيي الدين بن عربي([6]) في (فصوص الحكم) إذ نجده يشير إلى هذه المعادلة.
أما الفخر الرازي فقد تميز عن كلا العالَمين بأن حاول أن يفسر عمليًا في تفسيره الكبير (مفاتح الغيب) ويقول في مقدمته (استغرب بعض الناس حينما قلت: إنني أستطيع أن أكتب من تفسير سورة الفاتحة وقر بعير، وإنني لا زلت أقول هذا القول ولأبرهن على ذلك؛ فإن بين يدي القارئ مجلدًا كاملا في تفسير سورة الفاتحة فقط) ونحن لا ندعي أن الفخر الرازي أو ابن عربي أو المحاسبي استطاعوا تفسير القرآن بالكون أو العكس، وإنما قدموا مؤشرات.

---

[1] -يقصد بالعناصر الثلاثة التي تدور حولها العلوم وتكون مصادر للمعرفة فالقرآن تدور حوله العلوم الشرعية كالتفسير وأصول الفقه وعلوم القرآن وغيرها، والكون تدور حوله العلوم الطبيعية التطبيقية والإنسان تدور حوله العلوم الإنسانية والاجتماعية، أما القرآن فهو كلام الله أنزله وهو علم قطعي الثبوت وهو مصدر لا مثيل له للكليات والمسلمات العلمية اللازمة لنشأة العلوم بشقيها الطبيعي والإنساني ذلك أن أحد أهم مشاكل العلوم الحديثة هو عدم يقينها من المسلمات الكلية التي تقوم عليها وعدم وجود منهجية قادرة على توفير هذا اليقين (المعرفة بين الإسلامية والعلمانية، ص ١١)

[2] -الكون، بكل عناصره مصدر أساسي من مصادر المعرفة الإسلامية والدليل تجده في كثير من آيات القرآن، التي تحث الناس على التأمل والتدبر والتفكير في خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة ومن آية دالة على عظمة خالقها، وهذا الأمر أوضح من أن يخفى.

[3] - الإنسان: فردا أو مجتمعا هو عنصر هام من العناصر التي قامت العلوم عليه، فانفرد بشق كبير من العلم وهو الدراسات الاجتماعية والإنسانية بصورة عامة كعلم النفس والاجتماع وغيرها.

[4] - سورة فاطر الآية ٢٨ والمعنى: أن العلماء هم الذين يخشون الله ولا يخشون أحدا سواه ومعنى القصر في الآية قد أفاده تقديم ما حقه التأخير وهو المفعول به (اسم الجلالة).

[5] - الحارث المحاسبي: هو الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله من أكابر الصوفية كان عالما بالأصول والمعاملات، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد عام ٢٤٣ هـ، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره من كتبه (أدب النقد وشرح المعرفة) و (المسائل في أعمال القلوب والجوارح)- (المسائل في الزهد) و (البعث والنشور) و (ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه).

[6] - محيي الدين بن عربي: أحد أعلام التصوف ويسمى بفيلسوف الخاصة والكبريت الأحمر له من المصنفات (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) وله ديوان شعر مطبوع وتفسير للقرآن امتاز بالطريقة الإشارية في التفسير وهي نوع من التفسير الباطني

ومن معارضي هذا الاتجاه: كمثال الذهبي([1]) فقد قال: إن تفسير الرازي (فيه كل شيء إلا التفسير)... ورد عليه ابن السبكي([2]) قائلا: (عفا الله عن الشيخ الذهبي لقد كان تفسير الرازي فيه كل شيء مع التفسير). ويقول الرازي: (يقولون لقد أكثرت في تفسير القرآن من ذكر علم الفلك والهيئة وغيرها. والجواب إنني ما أكثرت، ولكن القرآن يشير إلى ذلك). وقد قال الرازي في موسوعته التي حوت مائة علم: (لو شئت أن آتي بأصولها من القرآن لفعلت).

عاقبة التفريق بين القراءتين

ولا شك أننا إذا لم نستطع الجمع بين القراءتين، لم نكن مؤهلين لحمل أمانة الاستخلاف. فالربط بين أسس أركان الدين، وقيم الدين، وبين قوانين الوجود، لا يخفى على متأمل. وفي القرآن إشارات أكثر من أن تحصى.

أثر التفريق بين القراءتين في الفكر الغربي

ولكن القوانين الطبيعية قد اكتشفها الأوربيون أصحاب البعد الواحد؛([3]) وقد كانوا خارجين من معركة مع الكنيسة، وأبعدوا كل فكر ديني على أن يكون له علاقة بهذا الشأن، واختلفوا لقوانين الطبيعة قوانين ونهايات، وإحالات مختلقة من أنفسهم بحسب أهوائهم. فهناك – عندهم – البعد الوضعي([4]) المسيطر على العلوم الطبيعيّة... وهناك البعد اللاهوتي([5]) الذي سيطر على مقومات النظر إلى أسس القيم الدينية... وكأن الإنسانيّة – نتيجة النظر بالبعد الواحد – قد أصيب اصابتين:

---

[1] - الذهبي هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، تركماني الأصل، من أهل دمشق، شافعي، حافظ، مؤرخ، كان محدث عصره سمع عن كثيرين بدمشق وبعلبك ونابلس برع في الحديث وعلومه وكان يرحل إليه من سائر البلاد وكان فيه ميل إلى أراء الحنابلة من تصانيفه (الكبائر) و (تاريخ الإسلام) في (٢١) مجلدًا و (تجريد الأصول في أحاديث الرسول) (ولد ٦٧٣ هـ - وتوفي ٧٤٨ هـ).

[2] - ابن السبكي هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكي ولد بمصر سنة ٧٢٧ هـ من مصنفاته (الأشيباه والنظائر) في الفروع الفقهيّة و (ترشيح التوشيح) في أصول الفقه و (الإبهاج في شرح المنهاج) للبيضاوي و (الدلالة على عموم الرسالة) وغيرها.

[3] - البعد الواحد: كمصدر للمعرفة المقصود به بصورة عامة النظر إلى الكون وحده بغض النظر عن المصدر الأساسي وهو الوحي أو النظر إلى الوحي والدين وقطع العلاقة مع الكون والواقع.

[4] - عندما دخل القرن الثامن عشر كان الفكر الغربي قد قطع أعظم الأشواط في التحرر من الفكر الديني حتى أطلق على العصر (عصر التنوير) ولم يكن يقصد من التنوير سوى إبعاد الوحي من التوجيه، وأهم مميزات ذلك العصر هو الإيمان بقدرة العقل على فهم الكون، وهذا الاتجاه الذي يعلي من شأن العقل ويحط من شأن الدين، كانت أهم مميزاته:

أ) شعور العقل بمقدرته على أن يأخذ مستقبل الإنسانيّة بعد إزالة كل عبودية الكنيسة.

ب) إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل.

ج) الايمان بالتعاون الإنساني على أساس الثقافة العالمية لا الدينية (انظر: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية د. محمد أمزيان ص ٣٩)

[5] - البعد اللاهوتي: هو طريقة الكنيسة في التفكير وكان هذا التفكير، يتجه اتجاها معاكسا تماما للحقيقة والواقع وظل موغلا في ميتافيزيقيا عقيمة، احتكرت به الكنيسة مجال التفكير وحرمت كل تفكير يخالف تقاليد البابوية وزاد من حدة هذا الجمود سيطرة التفكير الأرسطي الصوري، وظل التفكير العلمي خامدا طوال الفترة التي امتد فيها نفوذ الكنيسة التي تدخلت تدخلا قسريا في كل مجالات الحياة واضطهدت كل أسلوب علمي في التفكير (انظر: منهج البحث الاجتماعي بين والمعيارية، ص ٣٤)

الأولى: استبداد التأويل الوضعي المادي بأسس العلوم الطبيعيّة. الآن مصابة بحالة توقف منافٍ لطبيعتها، فلذلك تخلت من الإجابة عن السؤال بلماذا؟ إلى جواب السؤال بكيف؟

الثانية: تكريس الوحي اللاهوتي في النظر إلى الوجود وحركته في إطار جبرية غيبية تتجاوز مدارك الإنسان وتتركه يستبد بالوعي الديني كله. فكانت البشرية أن وقعت بين منهجين، أحلاهما مرّ.

منهج مادي في تصوره للكون والحياة والإنسان وأكبر ممارسة علمية يمكن اكتشافها هي الوحدة بين المتضادات.. والمنهج اللاهوتي قصارى ما وصل إليه هو المقارنة بين العلم والدين. فلا بد أن نخرج من المنهجي إلى منهج يعيد إلى الإنسان توازنه، وهو منهج الجمع بين القراءتين، ولذلك تصبح هذه القراءة أساسًا لا يمكن تجاوزه. غير أن الجهد البشري ذا البعد الواحد الذي حاوله البشر في دراسة القرآن معتمدين على المعجم اللغوي فقط أو بقراءة القرآن آية آية للخروج بالحكم الفقهي فقط لا يغني هذه القراءة([1]).

مشكلة القراءة الواحدة

نأتي إلى الآية السادسة من سورة العلق ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى {٦} أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى {٧} إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾([2]) بيّن الله تعالى أن الإنسان إذا مال إلى القراءة الواحدة فإنه سيتجاوز الحد. والطغيان يكون بالتعالي أو الهبوط عن الموقع الذي يكون الإنسان فيه([3]).

آثار القراءة الواحدة في تاريخ البشرية

وحين نستعرض تاريخ البشريّة كلها نجد أن الإنسان حينما اكتفى بقراءة واحدة، أدى ذلك إلى فوارق لا حصر لها. فالحضارة الفرعونيّة قرأت في الكون وتطورت في الزراعة والصناعة، ولكن دون هداية الوحي... وكذلك الهكسوس... والفرس... والحضارة الهيلينية...

كذلك فإن البشر قد يبتلون بعدم القراءة الموضوعيّة للكون، فيبتلون بتحقير الدنيا.. ويعدون كل شيء سوى العمل الروحي شيئًا لا قيمة له. ولا توجد حضارة متوازنة إلا التي جمعت بين القراءتين: عين تنظر إلى الكون فتعمل على إصلاحه، وعين تنظر إلى الوحي. أما إذا

---

[1] - البعد الواحد في النظر إلى القرآن والنظر الجزئي والاقتصار على المعجم اللغوي من العوامل التي أعاقت حركة الأمة وحصرت الإسلام في الصور الجزئية الشكليّة والقوالب اللغوية واللفظية، فحينما بعد عهد الناس بالرسالة تجسد دور القاموس اللغوي في فهم النص على وسائل وعناصر التفسير الأخرى، وظل دور القاموس يتضخم حتى طغى لدى البعض على سائر الوسائل الأخرى وأصبح الوسيلة الوحيدة للفهم والتفسير.

[2] - سورة العلق الآيات ٦ – ٨ وتفسيرها: حقًا إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان وباتباع هوى النفس ويستكبر (انظر: الصفوة: ٣، ٥٨٢).

[3] - معنى الطغيان في اللغة هو مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) أي لما زاد الماء عن حده وكان سيلا جبارًا وطوفانًا مغرقًا.

تجاوزت القراءتين إلى قراءة واحدة فهناك الطغيان ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى {٦} أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى {٧}﴾.

فحضارتنا الإسلاميّة لم تتدهور إلا عندما اختل عندها الجمع بين القراءتين... والحضارة الغربية اليوم أيضًا تنظر إلى الكون فقط، فاختل عندها الجمع بين القراءتين، فكل مظاهر الفساد في هذه الحضارة ناجمة عن آحاديّة النظر دون الجمع بين القراءتين.

مفهوم العبودية عند الجمع بين القراءتين

قال تعالى: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾([1]) ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾([2]) ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾([3]). يقولون: (الفكر هو تقليب الذهن في الشيء). وقبول الفكرة يتوقف في كونها معقولة بمعنى أنها لا تنبو على العقل الفطري. والإنسان يولد بمسلمات قبليّة، ولكن المنهجيّة الوضعيّة الناقصة تحاول نقض جميع المسلمات، حتى تلك التي ولد بها.

المنهجيّة الوضعيّة وادعاء العالمية

فالعقل المنهجي([4]) قد أحال المنهج العلمي([5]) على المعاش، وحاول إخضاع كل شيء إدعاءًا منه لتحقيق عالمية المنهج، ولكننا نرى أن العالميّة قد تحققت من قبل دون عقل المنهجيّة الوضعيّة هذا، لقد تحققت على أسس دين عند الهيلينين على يد الإسكندر الأكبر([6])، وعالمية الرومان، والعالميّة الإسلاميّة، كلها تحققت دون أن يكون المنهج الوضعي المعاصر قائمًا، فالمنهج الوضعي يدعي أنه يريد أن يقيم عالميّة، ويضع العلم على عرشها، فالعالم يكون ذا محتوى علمي والقيادة العسكريّةذات محتوى منهجي فالمنهج الوضعي يحاول إلغاء الفوارق الفكريّة الجوهريّة في توحيد صارم وخطوط عامة لا يمكن تجاوزها.

---

[1] - سورة النحل الآية ٧٤ . تفسيرها أي لا تمثلوا لله الأمثال، وتشبهوا له الأشباه فإنه تعالى لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق (صفوة التفاسير ٢ / ١٢٤).

٢- سورة النحل الآية ٧٥ . تفسيرها: هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا أي مثل هؤلاء في إشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك يتصرف في أمره كيف يشاء مع أنهما سيان في البشريّة والمخلوقيّة لله سبحانه وتعالى فما الظن برب العالمين حين يشركون به أعجز المخلوقات (انظر: الصفوة ٢/١٢٦)

[3] - سورة النحل الآية ٧٦ تفسيرها: هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد: هذا مثل مضروب للوثن والحق تعالى (انظر: مفتاح الغيب للرازي: ٢، ٩٢) فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا يقدر على شيء؛ لأنه إما حجر أو شجر (انظر: الصفوة ٢، ١٢٦).

[4] - العقل المنهجي: يقصد بالعقل المنهجي هنا ذلك الاتجاه الذي حدد إطاره العام ووضع أسسه الكلية وفق قواعد محددة التزم بها وسار عليها، وهذا العقل المنهجي مقصود به كما هو واضح في السياق عقل المنهجيّة الوضعيّة الذي استند على عدة مسلمات مثل (إن الدين والعلم ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يتصالحان) وكل منهما يسعى لتدمير الآخر واعتبار الحس وحده مصدرًا للمعرفة الاجتماعيّة واعتبار النموذج الطبيعي سلطة مرجعيّة للعلوم الإنسانيّة وإخضاع الظواهر الاجتماعيّة للتجريب واختزال الحقيقة الاجتماعيّة في جوانبها الماديّة وإحلال النسبة محل المطلق في دراسة الظواهر الأخلاقيّة وتبرير مشروعية النزعة الإلحاديّة وغير ذلك.

[5] - يقصد بالعقل العلمي تلك النزعة التي تسعى إلى تكوين الأفكار والآراء التي تطابق الحقيقة والواقع.

[6] - الاسكندر: هو الاسكندر المقدوني يقال إنه هو ذو القرنين الذي ورد اسمه في القرآن

احتواء الوضعية للعلوم الاجتماعيّة

وقد حاول هذا المنهج إدخال العلوم الاجتماعيّة إلى حدوده الصارمة... وقد عدّ البعض ذلك إنجازًا كبيرًا، فلم تعد هناك فوارق أو خصوصيات، ولم يعد العلم ممزقًا([1]).

هناك مشكلة النظام العالمي الجديد الذي يحاول إلغاء خصوصيّات الشعوب وتوحيدها في إطار واحد، فالتاريخ والحضارة والأيدلوجيا([2]) الأخرى في هذا النظام لا تشكل غير ثقافات يتسلى بها وهكذا. فالذين يفصلون بين العلوم الطبيعيّة والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة. سيواجهون مأزقًا. إذ أن العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة في المنهج الوضعي تصب في العلوم الطبيعيّة.. أي لا فصل بين الإنسان والطبيعة...

ضرورة قيام معركة لمواجهة المنهج

في أسلمة المعرفة الآن نواجه هذا المأذق، فلا بد إذًا من مواجهة المنهج وقيام معركة معه... فالمنهج العلمي قد أنفقت فيه البشريّة الكثير، ووصل إلى إنجازات هائلة، وهذه الإنجازات لا نستطيع أن نتنكر لها، ولكن نستطيع أن نقوم بشيء آخر، وأن ندرس هذا المنهج العلمي دراسة واعية وطرائق تعامله مع العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، وتحديد الموقف الذي ينبغي أن نقفه منه.

القرآن الكريم ومعالجته للمشكلة

القرآن الكريم في عالم اليوم المؤسس على الضوابط العلميّة المنهجيّة، المقيد بالعلم الذي نتجاوز به الأزمات، يقوم بعمل خاص، وهو أنه يأتي إلى المنهج العلمي التجريبي، ويعقد معه اتفاقًا يقوم على نقض إحالاته الفلسفيّة، فيقول له:

- أين إحالاتك الفلسفيّة؟
- لقد قطعت صلتي بكل ما لا يخضع للمختبر.
- فكيف تعالج أزمتك؟ ألا ترى أنك في أزمة؟

---

[1] - دخول العلوم الاجتماعية في المنهج التجريبي هو من مستلزماتالنموذج الطبيعي، وكان ذلك من أهم نتائج المنهجيّة الوضعيّة على العلوم الإنسانيّة وإحدى الخصائص الأساسيّة فيها، وهذه النزعة أصبحت منتشرة ولها ممثلون في مختلف المدارس وقد اصطلح على تسميتها بـ (التجريبيّة العلميّة) وتندرج تحتها جماعات وأشخاص تنتمي إلى مذاهب كثيرة أهمها الوضعيّة المحدثة والنقديّة والتجريبيّة والوضعيّة التجريبيّة المنطقيّة والإجرائيّة، ولا تختلف هذه المدارس إلا في التوكيد على جانب دون جانب والهدف هو تحقيق العلميّة وعدم حاجة العلوم الاجتماعيّة – حسب رأيهم – إلى مواقف فلسفيّة.

[2] - قد شاع بين الكتاب الاجتماعيين أن الأيدلوجيّة تعني نظاما من الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعيّة والأخلاقيّة والدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة وتبريرها في نفس الوقت. وتقوم الأيدلوجيا بمهمة التبريرات المنطقيّة والفلسفيّة لنماذج السلوك والاتجاهات والأهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة (انظر قاموس علم الاجتماع د. محمد عاطف غيث ص ٣٠٤). ويتسم دائمًا هذا المسلك بالنزعة الذاتية.

- ألا ترى أن العلوم الطبيعيّة قد توقفت عن امتداداتها وهي الآن تجتر ما بنته سابقًا في إطار المدد الذي أعطيته لها؟

ثم يصل الحوار في نهايته إلى أن القرآن يحافظ على الإنجاز العلمي، ويربط بين الدنيا والآخرة، ويعطي المنهج العلمي الامتداد ويطالبه أن يتخلى عن وضعيته، ويؤكد أن هناك تواصلا بين قوانين الطبيعة، التي كشف المنهج العلمي عنها وبين قوانين الوجود التي على أساس منها ركبت القيم التي جاء بها. فالقرآن يقدم للمنهج العلمي الإحالات الفلسفيّة بدلا عن الوضعيّة، فيخرجه من أزمته، ويخرج إنجازاته من أزمتها. والقرآن لا يفصل بين العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة – كما تفعل اليهوديّة والنصرانيّة... وإنما يؤكد هذه الصلة كما في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (سورة غافر الآية ٥٧). ويتفق القرآن مع المنهج العلمي في ربط الكلي بالجزئي، وربط الأجزاء إلى الكلّيات، وربط الكثرة إلى القلّة العلميّة. فالقرآن لا يعارض المنهج العلمي التجريبي ولكن يوجّهه ويرشده.

مشكلة التراث الغربي

والتراث الغربي حذر جدًا من فكرة الدين، والقرآن كتاب سماوي ديني، وهنا سيعترض المنهج الوضعي للقرآن، فيقول له: أنا لا أتحالف معك، لأنك سترجعني إلى العقل الفطري ونحوه، وأخشى أن تشدني إلى ما عانيت طويلا في التخلص منه في الماضي.

مشكلة التراث الإسلامي

وعند عذد القرآن الكريم للإتفاقات مع المنهج العلمي التجريبي، سيعترض التراث الإسلامي المحمّل بالكم الهائل من علوم الوسائل والمقاصد، التي شكلت خلفيّاتنا الفكريّة والثقافيّة والعلميّة. ويقول: إن ذلك سيؤدي إلى نبذ الكثير من مقوماته وبتر أشياء كثيرة جدًا منه. فكيف تحل هذه المشكلة رغمًا عن التراث الغربي وتراثنا؟

الظاهرة الاجتماعيّة وكيفيّة التعامل مع القرآن

نجاول أن نقارب منهجيّة التعامل مع القرآن كمصدر للمعرفة الإنسانيّة والاجتماعيّة، فأسلافنا قد قدموا لنا في أصول الفقه منهجيّة([1]) للتعامل مع القرآن والسنّة، باعتبارهما مصدرين للمعرفة الفقهيّة والأحكام الشرعيّة، وما يعرف عند الأصوليين بالأحكام المشتركة بين الكتاب والسنّة عبارة عن منهجيّة التعامل مع الكتاب والسنّة، ومن المعلوم أن القضية الفقهيّة تختلف عن الظاهرة الاجتماعيّة، فللظاهرة الاجتماعيّة خصائصها، وللقضيّة الفقهيّة صفاتها وخصائصها، كذلك القضيّة الفقهيّة تتطلب حكمًا بأن يقال هذا حلال وهذا حرام إلى غير ذلك من أحكام تكليفية([2]).

أما بالنسبة للظاهرة الاجتماعيّة فإنها تحتاج إلى محاولة لإدراك الظاهرة وعناصرها، وما وراءها، وما قد ينتج منها، ثم يأتي بعد ذلك نوع من النسبة والتصور، وهو ما يسمى بالحكم المنطقي؛ وهو إدراك الشبه بين الشيء والشيء الآخر؛ لإعطاء تصور بأن هذا الشيء ضار أو نافع أو مردود، فالظواهر الاجتماعيّة يغلب أن تكون مقاربتها بهذه الطريقة. فبالتالي إذ كنا نتفق على أن الباري جل شأنه لم يفرط في الكتاب من شيء([3]) وأن القرآن العظيم وبيان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سننه كافيان لتقديم سائر عناصر الهداية لنا، فذلك يعني أننا نستطيع أن نجد في الكتاب والسنّة مصدرين لهدايتنا، وإعطائنا الوجهة المطلوبة لتصوراتنا، أو إنمائها بحيث تكون قادرة على تحديد الحسن من القبيح من الظاهرة الاجتماعيّة.

بين منهج العلوم الاجتماعيّة والمنهج الأصولي

إذا كان الأمر كذلك فهل نستطيع أن نستعمل نفس منهج الأصوليين في إطار الظواهر الاجتماعية، أم يجب إدخال كثير من التعديلات والإضافات على هذا المنهج، أو تطويره بشكل أو آخر ؛ لنبني عليه منهجًا للتعامل مع الكتاب والسنّة كمصدرين أيضًا للظواهر الاجتماعيّة؟ الذي نستطيع أن نقوله بداية: هو أنه لا بد من وجود منهج آخر([4]) لمقاربة الظواهر الاجتماعيّة والإنسانيّة، ولكن هذا المنهج لا بد أن يستفيد من منهج أصول الفقه على الأقل في منهج مباحث الألفاظ([1]) ذلك أننا أمام خطاب قرآني وخطاب نبوي.

---

[1] - أصول الفقه هو مجموع طرق الفقه على الإجماع وكيفية الاستدلال لها وكيفية حال الاستدلال بها.

[2] - الحكم التكليفي خمسة أنواع هي: الإيجاب والندب والتحريم والكراهة والتخيير وأثرهما في الأفعال: الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة (انظر: أصول الفقه للشيخ محمد الخضري، ص ٣٠)

[3] - هذه إشارة إلى قوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

[4] - ينبغي أن يكون للدراسات الاجتماعيّة منهج آخر غير منهج أصول الفقه الذي يرتبط بإخضاع الأحكام الشرعيّة لأدلتها التفصيليّة أما إذا تجاوز هذا المنهج دائرة التشريع ليمتد إلى مجالات المجتمع والفكر والثقافة التي يحملها الإنسان عن الكون والحياة، فهذا هو المراد حيث يقصد به صياغة الأفكار والثقافة وفق الأصول الشرعيّة الكليّةحتى تأخذ الصفة الدينيّة التي تستمد شريعتها من عقيدة التوحيد وهو الميزان الذي توزن به كل المنطلقات والتصورات، وتضبط به كل

وهذا الخطاب قد صيغ في ألفاظ عربيّة، وأصول الفقه قد اشتملت في مباحثها المشتركة على كثير من المباحث المتعلقة بقضايا الألفاظ والتعامل معها في هذا المجال فيمكن أن نأخذ من أصول الفقه كما أخذ من غيره من العلوم إلى أن أصبح علمًا قائمًا بذاته([٢]).

منهج مغاير للمنهج القائم

فلو استمر الحال هكذا الآن، مع استهلاك الأمة الإسلاميّة للعلوم الاجتماعيّة كما أنتجها الغرب، (فهذه العلوم قد أنتجت من خلال بُعد واحد لا يعتد بالوحي مصدرًا للمعرفة بحال).

فذلك يعني أن معاناة المسلمين وانقسامهم إلى: علماني([٣]) وإسلامي وديني وغير ديني أمر سيبقى إلى ما شاء الله، لأن العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة تعتبر هي المكون للعقل الإنساني المعاصر. وإذا كان هذا العقل متجاهلا للوحي متنكرًا له فإن الأمّة ستظل منقسمة. فبدلا من أن نحمّل الإسلام إلى سوانا سنظل نتقاتل فيما بيننا، ويدوم الصراع.

فلا بد من الخروج من هذا المأزق، ولذلك كانت فكرة أسلمة أو تأصيل العلوم، لمحاولة إعطاء منهج ومنطق مغاير للمنهج القائم، يعتبر الوحي مصدرًا أساسيًّا للمعرفة، وما دمنا ننادي بذلك فلا بد من تقديم مناهج للتعامل مع هذا المصدر حتى تصح الدعوى، ويتمكن الباحثون من الوصول إلى هذا الهدف.

النموذج المعرفي والجمع بين القراءتين

إن الجمع بين القراءتين أهم محدد منهجي لبناء معرفتنا سواء كانت معرفة كونيّة أم اجتماعيّة أم إنسانيّة، لماذا؟ لأن الجمع بين القراءتين – قراءة الوحي وقراءة الوجود – هو المخرج لا للمسلمين وحدهم، بل للعالم كله من أزمات المعرفة المعاصرة، وما أدت إليه.

إن كل المحاولات السابقة في تراثنا لم تكن إلا على نماذج معرفيّة، هناك مقالات الإسلاميين أحصى الشهرستاني فيها ما يزيد عن سبعمائة فرقة، انقسم المسلمون إليها بحسب

الآراء والفلسفات والمعتقدات مهما تعددت منابعها ومفاهيمها. وللدكتور محمد محمد أمزيان آراء جيدة جدًا حول هذا المضمار في كتابه (منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعياريّة).

[1] - مباحث الألفاظ في أصول الفقه هي طرق معرفة اللغة والأسامي الشرعيّة وتقسيمات اللفظ ودلالة اللفظ وعبارة النص وإشارة النص واقتضاء النص ودلالة المنطوق ودلالة المفهوم والترادف والاشتراك والعموم والخصوص بكافة تقسيماتهما وغير ذلك.

[2] - علم أصول الفقه علم قائم بذاته مستقل عن غيره، ولكن له مقدمات لا يستطيع الاستغناء عنها، وقد استمدت هذه المقومات من علوم أخرى كعلم المنطق الأرسطي الذ اعتاد الكاتبون في الأصول من المتكلمين أن يقدموا لكتاباتهم عليها كمباحث الدلالات اللفظيّة وأقسامها وانقسام اللفظ إلى تصور وتصديق كما استقى بعض مقدماته من علم الكلام والباحث اللغويّة

[3] - العلمانيّة أو اللادينية (Secularism) هي حركة كونيّة شاملة غطّت كل جوانب الحياة ووصلت إلى كل أطراف العالم، وهي ثورة بدأت في الغرب وامتدّت إلى كل العالم، وهي رؤية مادية محضة بالدرجة الأولى، تفترض أن الخالق غير موجود أو موجود ولكنّه مستبعد من النموذج المعرفي، وهو مسئول عن البدايات وربما النهايات فحسب أما ما بينهما فلا، إذ هذا عندهم خاضع للقوانين الآليّة الكامنة في المادة، وهي رؤية أحاديّة للواقع، فالعالم مادة لا قداسة له ولا أسرار ولا حرمة، (انظر: المعرفة بين الإسلاميّة والعلمانيّة د. محمد الحسن بريمه، ص ٤-٥)

مقولاتهم، ومقالات هذه الفرق لم تكن إلا النماذج المعرفيّة الصغرى التي انطلقت كل فرقة منها لبناء مقولتها.

وكتب الأشعري([1]) كتابه المعروف (مقالات الإسلاميين). وكتب الإسفرايبني (التبصير في الدين)، وكتب الزبيدي (الحور العين)، وكتاب الرازي (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) إلى غير ذلك، كل هذا يدور حول المقالات التي لم تكن إلا نماذج معرفيّة خاصة لهذه الفرق. وحينما نحاول نقد أي مقولة من مقولات هذه الفرق نجد هذه المقولة: إما متعلقة بالذات الإلهيّة، وإما بصفات الآيات الكريمة التي عدت عند البعض متشابهات([2])، وعند البعض الآخر محكمات([3]).

وحينما نقوم بعمليّة الفحص الدقيق لمقولتهم نجد أن هناك غفلة عن إحدى القراءتين، والآن حينما ننظر إلى أفكار الشرق أو الغرب، ونحاول أن نحلل أي مقولة فلسفيّة منها نفتقد أول ما نفتقد الجمع بين القراءتين. عين عوراء([4])!.

يستعمل الإنسان فيها عينًا ويغمض الأخرى، فهي قراءة تؤدي به إلى نوع من المقولات، فالله قد أرشدنا إلى العدالة ودعانا إلى الجمع بين القراءتين منذ اللحظة الأولى. (قراءة باسم ربك) في الحركة الكونيّة تتابع الإنسان من العلق إلى الإنسان المسئول عن إعمار الأرض: قراءة تنظر في الحياة والموت والكون المنشور بين يدي الإنسان. وقراءة أخرى بمعيّة الله جل شأنه في الوحي الهابط من السماء الذي يكون معيارًا للقراءة الأخرى. كما أن القراءة الأخرى تكون معيارًا لحسن الفهم في القراءة الأولى، فبالتالي فإن أي علم من العلوم أو أي نوع من المعرفة يفترض أن نجد فيه أثر القراءتين، فإن أهملت إحداهما وبرزت الأخرى، فإنه سيحدث طغيان، لكن الرابط بين القراءتين ينبغي أن يكون رابطًا منهجيًّا، وليس بأن أضع شيئًا من القرآن وشيئًا من الكون وأحاول التلفيق([5]) بينهما، بل إن عمليّة الجمع هذه من أعقد العمليّات فهي عمليّة تعتمد على منهج علمي، والقارئ في كلتا الحالتين هو الإنسان المتعامل مع هذا المنهج المنفعل بكلتا القراءتين.

---

[1] - أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل صاحب كتاب مقالات الإسلاميين الشهير، صحب المعتزلة أربعين سنة ثم تخلى عن فكرهم وإليه تنسب عقيدة الأشاعرة توفي سنة ٣٢٤ هـ.

[2] - المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه أو احتمل أوجها كثيرة أو هو ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان يرده إلى غيره ومثال المتشابه المنسوخ وكيفيات الأسماء والصفات الإلهيّة نحو (الرحمن على العرش استوى) و (وكل شيء هالك إلا وجهه) و (يد الله فوق أيديهم) ونحوه. انظر: مباحث في علوم القرآن ٢٢١.

[3] - المحكم هو ما عرف المراد منه أو هو ما لا يحتمل إلا وجها واحدا أو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ومثال المحكم: الناسخ والحلال والحرام والحدود والفرائض والوعد والوعيد ونحوه (انظر: مباحث في علوم القرآن. مناع القطان، ص ٢٢١).

[4] - العين العوراء هنا كناية عن النظرة الأحاديّة ذات البعد الواحد التي تنظر إلى الكون مجردًا وتغمض عينها الأخرى عن الوحي، أو هي العين التي تنظر إلى الوحي ولا تنظر إلى الكون والواقع الذي سبق أنه كتاب الله المنظور المخلوق المجسم.

[5] - التلفيق: هو عدم النظرة المنهجيّة التي لا ترى الأمور رؤية كلّيّة شاملة وإنما تأخذ الآيات والأحاديث الشريفة والتراث الإسلامي وتنتقي منها انتقاءًا عشوائيًّا وتحاول تطبيقه على الواقع والحياة.

هيمنة المنهجيّة الوضعيّة العالميّة

لكي نصل إلى هذا المنهج المقترح فقد تحدثنا كيف وصلت البشريّة إلى المنهج التجريبي، ولكن ما علاقة هذا بالإسلام؟ إن هذه المنهجيّة قربت بين البشر وجعلت وحدة البشر مسألة ممكنة اليوم، ونحن نسمع، أن العالم صار قرية صغيرة، وهذا الأمر لم يكن من قبل، فهناك عالميّة انتماء تتبلور، وهناك تراجع للأفكار المغلقة، وهناك مؤتمر عقد من أربع وستين دولة كُلّف فيه الباحثون بالبحث عن السمات المشتركة بين الشعوب للوصول إلى الإنسان العالمي. وهناك ما سمي بوحدة الإنسانيّة، ووحدة البشريّة. والإنسان العالمي، على اعتبار القرن الواحد والعشرين هو قرن العالميّة. إذًا فهناك ما يسمى بعالميّة انتماء، وعالميّة تفاعل بين البشر، وعالميّة القواعد المشتركة في التفكير، تجاوزت حتى العقل العلمي لتفرض عليه المنهج. لقد أصبح لزامًا على أي خطاب يوجه في عصرنا هذا أن يشتمل على عنصرين:

الأول: أن يبرز فيه الاتجاه العالمي، فلا بد أن يتجاوز خطابك خصوصيّتك إلى عموميّات الآخرين.

الثاني: أن يكون الخطاب مصوغًا وفق منهجيّة التفكير السائدة التي لها قواعد مشتركة للفهم بين البشر تقوم على منهج تجريبي مفيد للعقل وللعلم كذلك. فالمنهج هو السيّد، ألا ترى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بعملية التحلية بعد التخلية كما يقول الصوفيّة، وهي عملية تغيير مفاهيم، كأن يقول من المفلس؟ فيقول أصحابه المفلس من لا يملك درهما ولا دينارًا. فيقول المفلس هو الذي أخذ مال هذا وضرب هذا وشتم هذا، عملية تغير للمفاهيم الموجودة بعد انتهاء فاعليتها وشحنها بمحتويات جديدة. الغرب فعل نفس الشيء، فقيم العدل عندك غير العدل عنده، وكذلك مفهوم الحق ومفهوم الإنسان، ومفهوم المرأة، كلها مفاهيم غير ما تعرف أنت.

فإذا لم تجد وسيلة لتصوغ خطابك إليه على مستوى منهج التفكير والقواعد المشتركة بين البشر، وهي قواعد قائمة على المنهج العلمي التجريبي الذي يقيد العلم والعقل، إذا لم تجد الوسيلة فانس أن تصوغ خطابك.

كيفية عرض القرآن عالميًا

أنا الآن عندي مسلّمات وبديهيّات، وهي أن القرآن معجز ومتحدي وخطاب كل زمان ومكان، فإذا جئنا إلى الناس به اليوم، وقلنا لهم هذا كتاب الله يكفل لكم الهداية، ويخرجكم من أزمانكم كلها، وهذا صحيح، ونحن نؤمن به.

سيقولون لنا: حسنًا، فمنهج القواعد المشتركة هل يؤيد دعواك هذه؟ تقول لهم: نعم، يقولون: أعرضوه علينا، فكيف نعرضه؟ هل أقرأ عليهم القرآن، وأقرأ ما قاله المفسرون في التراث؟ إننا إذًا لن نتفق، وهذا القرآن جاء لمخاطبة البشر في أي مستوى يكونون، ولأجل ذلك لا بد أن يكون فيه منهج متفوق ومعجز.

فالله إذا كان أودع في الكون سننًا وقانين بنى المنهج التجريبي على أساس منها. والقرآن بحكم كونه معادلا للكون وحركته، لا بد أن يكون مشتملا على منهجيّة مستوعبة ومتجاوزة لهذه المنهجيّة وغيرها من مناهج البشر.

إن العقل الغربي مغلق تجاه أي كتاب ديني، لأنه فرغ من اتخاذ موقفه من الدين، فالدين عنده شيء أشبه ما يكون بالخرافة، والقرآن كتاب ديني فكيف نتغلب على هذه المشكلة؟ إن القرآن المجيد مشتمل على مجموعة من المحدّدات المنهجيّة، هذه المحدّدات يمكن أن تتغير. فما نعتبره متقدمًا الآن قد تعتبره الأجيال المستقبليّة متخلّفًا جدًا وما هي معالم على الطريق ولا ندعي الإحاطة بهذه المحدّدات في القرآن ولكن نقول قدر استطاعتنا. فالعلم الحالي تجاوز قضيّة الثابت والمتغير، ودخل دائرة النسبيّة، ودائرة الاحتماليّة، النسبيّة([1]) التي كانت هي الأساس لقد تجاوزها هي أيضًا، فالآن الغربي في ظل المنهج الحالي إذا قلت له إن الله موجود، لا يقول لك لا، وإنما يقول محتمل، هل كان موسى أو المسيح نبيًّا؟ يقول لك: محتمل.

فكل شيء دخل دائرة النسبيّة، ولم يعد هناك ثابت وكل ما عنده متغير، فأنا عندما آتي له بالقرآن أقول له: أنا أحل لك مشاكلك وأزماتك، وإن سبب أزماتك هو القراءة الواحدة. وقراءتك معظمها كان صحيحًا، ولكن حين قرأت الكون وحده فقدت عدة أشياء، أستطيع أن أعطيك إياها بعد أن فقدت الوسيلة للحصول عليها، وأنا أحب أن أقول لك: إن منهجيتك القائمة على قراءة الكون وحده أدت بك إلى العبثيّة والعدميّة ونهاية التاريخ([2]) لأنك فهمت الصيرورة بإطلاق، فعندما يصير عندك خلل في المنهج تضطرب وترجع إلى النسبيّة والاحتماليّة. هي ليست حلا.

ولكن عندي حل وهو أن القرآن حين نقرؤه وتفهمه وننزله على القواعد المشتركة سوف تجد أن هذا الوجود قائم على ثاثيّة هي:

---

[1] - سارت الوضعيّة في توجيه منهجي جاء كرد فعل قوي على الكنيسة وقد حددت الوضعية موقفها من قضية القيم والمعتقدات، وهذا الموقف الذي تميز بالتأكيذ على نسبيّة القيم ونفي فكرة الثبات عنها وإحلال فكرة التغيير والتطور المطلق مكانه، ولم تعد القيم تعبر عن حقائق في حد ذاتها.

[2] - إن الاتجاه الذي تسير عليه الوضعيّة بصيغتها العلمانيّة تهدف إلى حصر الحياة في الحياة الدنيا ثم ينتهي العالم ويفنى وهو ما عرف بنهاية التاريخ، وهي نظرة ماديّة محضة تحدث عنها القرآن في عدة مواضع نحو قوله تعالى: '' وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين'' الأنعام، وقوله: ''إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين'' المؤمنون.

١ - الله.

٢ - الخلق.

٣ - الإنسان.

فأنت أغفلت الله والغيب، والصيرورة أدت بك إلى العدميّة، والعبثيّة، فالحياة عندك عبث، وليس عندك غاية، فإنك وصلت فيها للقمر، ونهلت من الملذات ما شئت بلا هدف. ولذلك كثر عندكم الانتحار.

معالم منهج التعامل مع القرآن

ولكن لكي تتضح معالم منهج التعامل مع القرآن، فهناك محدّدات منهجيّة، يمكن من خلال هذه المحدّدات أن نخرج بمنهج متكامل، ومن هذه المحدّدات:

المحور الأول – إدراك طبيعة لغة القرآن:

لغة القرآن عربيّة ولا شك، لكن عربيّة القرآن ليست كأي عربيّة أخرى([1])، وإلا أوقع ذلك في كثير من اللبس والخطأ، فقد تحكم في بعض الأحيان تصور بأنه ما دامت لغته عربيّة فيجب أن نأخذه بمفاهيم العرب، يقول الأصمعي: (ما كنت أفهم معنى الدهاق حتى ذهبت إلى قبيلة من قبائل العرب فسمعت جارية تقول لأمها: يا أماه اسقيني دهاقًا([2])، فعرفت أنها تريده كأسً مملوءة).

والإمام الشافعي([3]) له كلام جيد في هذا المجال، حاول أن يشير فيه إلى أن القرآن وإن كان عربيًّا فإن لغته متميّزة بكل معاني التميّز، ونفى ما وقع فيه كثير من العلماء من أن القرآن فيه كثير من الألفاظ غير عربيّة([4]).

يقول: ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلم من يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب شيء منه على عامته؛ بحيث لا يكون موجودًا من يعرفه،

---

[1] - عربيّة القرآن ليست كأي عربيّة أخرى، وذلك لأن النظم يختلف عن نظم غيره فالمفردات هي نعم مفردات العربيّة، وكن الذي يميزكلامًا عن كلام – ناهيك عن القرآن – هو طريقة نظمه وسبكه، فالمفردات هي مادة خام لم يصنعها المتكلم وإنما يقيم بينها علاقات نظيمة خاصة لتدل على فكر ومعنى وإذا كان وجه التفاضل هو ذلك وغيره فهو في القرآن بصورة أكثر ظهورًا حيث إنها معجزة لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثلها وإن تعاونوا وكانوا يدًا واحدة.

[2] - كأسًا دهاقًا أي: مملوءة، يقال أدهقت الكأس أي ملأته قال الشاعر: (انظر صفوة التفاسير: ٣ / ٥٠٧)

آتانا عامر يبني قرانا فأترعنا له كأسًا دهاقًا

[3] - الإمام الشافعي محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان بن نافع من بني المطلب من قريش وأحد أئمة المذاهب الأربعة، جمع علم الفقه والقراءات والأصول والحديث واللغة والشعر، ولد عام ١٥٠هـ كان ذكيًا نشر مذهبه بالحجاز والعراق ثم انتقل إلى مصر ونشر فيها مذهبه أيضًا سنة ١٩٩هـ وبها توفي سنة ٢٠٤.

[4] - اختلف العلماء في وقع اللفظ غير العربي في القرآن، فالأكثرون ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة وابن فارس على عدم وقوعه وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك وقال ابن جرير: إن تلك الألفاظ فيها توارد لغات فتكلمت بها الفرس والعرب والحبش وقيل: إن العرب لمخالطتهم لسائر الألسنة في أسفارهم علقت الألفاظ في لغتهم حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان وقال آخرون هي ألفاظ عربيّة صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جدا ولا يبعد أن تخفى على أكابر العلماء وقيل: إن العرب سبق لهم التحدث بها. ثم انتقلت إلى غيرهم، وهذه الألفاظ المختلف فيها مثل (الأرائك) قالوا هي السرر بلغة الحبش و (أباريق) هي طريق الماء بالفارسيّة و (أسفار) هي الكتب بالسريانيّة

والعلم به عند العرب كالعلم بالسنّة عند أهل الفقه، ولم نر رجلا جمع السنّة فلم يذهب منها بشيء، وعلم أكثر اللسان([1]) في أكثر العرب أعم من علم أكثر السنن في العلماء؛ ثم يقول: (فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محص في لسان العرب لا يخلطه فيه غيره)، قلنا: إن الحجة فيه كتاب الله يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (سورة إبراهيم: الآية ٤). وقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٩٢} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ {١٩٣} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ {١٩٤} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾

(سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ -١٩٥). وقال: ﴿ حم {١} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ {٢} إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف الآيات ١ -٣). وقال: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (سورة الزمر: الآية٢٨). فأقام حجته بأن كتابه عربي ونفى عنه كل لسان غير لسان العرب.

فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة النحل: الآية ١٠٣). وقال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (سورة فصلت: الآية٤٤). ويستمر الشافعي فيقول: (على كل واحد أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أنه لا إله إلا الله ويتلو به كتابه). وهذا محدد منهجي هام لفهم كتاب الله.

المرجع في فهم لغة القرآن

لكن الذي لا بد من فهمه هو هل المرجع في ذلك لغة البداوة؟ روى ابن جني([2]) في خصائصه عن عمر بن الخطاب: (عليكم بالشعر ديوان الجاهليّة فإن فيه معاني كتاب الله)، أو نحو هذا. فكل من له أدنى إلمام باللغة يعرف أن اللغة تعبير عن أفكار. والبدوي ليس له كل أفكار القرآن، فالقرآن يقول: ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ﴾.. ففكرة اللغة ينبغي أن لا تحمل على عواهنها ، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرشدنا إلى أن القرآن يفسر بعضه بعضًا([3])، وكلمة الصلاة([4]) لا تعني غير الدعاء كقول الأعشى([5]): صلي على دنها

---

[1] - اللسان هو اللغة، عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته الآلية

[2] - ابن جني هو عثمان بن جني كان أبوه روميًّا يونانيًّا، ولد في الموصل ٣٣٠هـ من كبار علماء اللغة من أشهر مؤلفاته الخصائص.

[3] - القرآن يفسر بعضه بعضا، ويحمل مطلقه على مقيده، ومنسوخه على ناسخه، وعامه على خاصه وهو بصورة عامة يؤخذ بعضه على بعض من حيث تبين بعض آيات لآيات أخرى

[4] - الصلاة معناها في اللغة الدعاء والاستغفار والصلاة من الله تعالى الرحمة وقال عدي بن رقاع

صلى الإله على أمرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

وقد وردت بمعنى الدعاء أيضًا في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطرًا فليطعم وإن كان صائمًا فليصل) يدعون للمسلمين والمسلمات (لسان العرب لابن منظور: ١٤، ٤٦٤ ــ ٤٦٥).

[5] - الأعشى شاعر جاهلي أحد الشعراء الأربعة المقدمين في الجاهليّة، كان يسمّى صناجة العرب لجودة شعره، أدرك الإسلام فأسلم ومدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقصيدة دالية، ثم أغرته قريش ببعض الأبل على أن يؤجل إسلامه عامًا فقبل ومات على كفره قبل تمام العام

وارتسم([1]) ولكن في القرآن لها معنى خاص: أقوال وأفعال ودعاء؛ مفتتحة بتكبير، مختتمة بتسليم، ولذلك اضطر الأصوليون لأن يقولوا: الصلاة حقيقة في الدعاء مجاز([2]) في أقوال مفتتحة بتكبير مختتمة بتسليم، فأدخلوا المجاز كوسيط، وبعضهم قال؛ لا، الصلاة حقيقة شرعيّة. نقلها الشارع من اللغة إلى الشريعة لتصبح حقيقة شرعيّة.

وكذلك الإيمان([3]) فهو التصديق في اللغة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الزكاة([4]) فهل هذا هو الحل؟. قد يساعد، لكن لا بد أن نلاحظ أن للقرآن لغته، فالقرآن لغة خاصّة، وأهم مصدر لفهم القرآن هو القرآن ذاته.

فمن هنا إذا أدركنا هذه المؤشرات أدركنا أن هذا الخطاب القرآني هو خطاب خاص، له لغته ونظمه([5]) وأسلوبه وإعجازه، ونزل بلسان العرب تيسيرًا ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ (سورة مريم: الآية٩٧).

فالله قد اختار هذه اللغة لينزل بها خطابه لذلك أعطاها سمات خاصّة، ولكن الخطاب ليس عاديًّا فهو قد منح هذه اللغة ما تستطيع أن تحتمله، ولذلك تبقى الهيمنة له لا لها([6])، فلغة القرآن معجزة، واللغة العربيّة غير معجزة، وهي متحدى بها، واللغة العربيّة ليست كذلك، فلغته عربيّة، ولكن عربيّة متميّزة خاصة.

المحور الثاني - وحدة القرآن البنائيّة:

فالقرآن جسم واحد، وعضو واحد، والله سبحانه قد نفى أن يكون القرآن مفرّقًا مجزّءًا، وقد سخر من أولئك الذين جعلوه أجزاء متفرقة كما قال: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ {٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (سورة الحجر: الآيتان ٩٠ -٩١). وعضين: أي أجزاء متفرقة يقول ابن كثير: ﴿هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض﴾.

ولكن المعنى لا يقتصر على ذلك. وهذه الوحدة؛ يقول بعض العلماء: إنها على مستوى السورة، فالسورة تشكل بناء، وللسورة عمود حين تكتشفه تستطيع أن تكتشف المحاور الكبرى للسورة، فهي وحدة بنائية على مستوى الآية والسورة ومستوى القرآن كله. والوحدة البنائيّة تعني أن هناك علاقة رابطة بين أحرفه، وبين الكلمة والأخرى، وبين الآية

---

[1] - وهي عجز بيت في قصيدة للأعشى في وصف الخمر. (انظر لسان العرب: ١٤، ٤٦٤).

[2] - المجاز هو إطلاق لفظ وإرادة معنى آخر له علاقة بمعنى اللفظ المطلق

[3] - الإيمان معناه في اللغة التصديق قال تعالى: ''قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا'' قال ابن منظور: هذا يحتاج الناس إلى تفهمه وأين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان (انظر: لسان العرب: ١٣، ٢٢-٢٣).

[4] - الزكاة من قولهم زكا أي نما وزاد وصلح والزكاة هي الصلاح (لسان العرب: ١٤، ٣٥٨). فأخذت هذه اللفظة في صيغة معاني شرعيّة.

[5] - النظم هو إقامة العلاقة بين مفردات اللغة وربطها بوشائج التركيب النحوية حيث تشكل كلامًا يدل على معاني وأفكار الناظم، وأول من أقر هذه النظرية بعد تمهيدات بعض العلماء هو عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز.

[6] - قواعد اللغة هي القواعد المستنبطة من كلام العرب ومن أشعارهم، وهذه القواعد يجب أن يكون الأصل فيها هو التعبير القرآني بحيث يكون هو المرجع في ذلك ويكون القياس عليه لا العكس.

والآية، وبين السورة والسورة داخل ما بين الدفّتين. وفي تراثنا لا نجد لهذه الوحدة أثرًا كثيرًا، وإنما قد نجد إشارة لها عند ابن هشام([1]). أو عند أبو علي الفارسي([2]) أو عند المحاسبي([3]) في معرض كلامه عن معادلة القرآن للكون، ونجدها كذلك عند الأصوليين في دائرة الأحكام، وكلها إشارات للوحدة الموضوعيّة وليس العضويّة.

إن عالم الاجتماعيات إذا أدرك أن القرآن قائم على هذه الوحدة أدرك كيف يتعامل معه، فهو جزء من منهجيّته، فالقرآن الكريم معطاء لكل من يقصده، ولكن ليس بالضرورة أن يعطيه كل ما يريد.

المحور الثالث - الجمع بين القراءتين:

وقد تحدثنا عن هذا العنصر بما فيه الكفاية في الفصل السابق.

المحور الرابع - القراءة المفاهيميّة:

انظر إلى مفردات القرآن فالراغب الأصفهاني([4]) تجده في (مفردات القرآن) يستنبط منها مصطلحًا ربما كان كافيًا في عصره. فالقرآن يقدم شبكة من المفاهيم فإذا قدم (العدل) مثلا قدم له مفهومًا كاملا، ويحوله من مجرد كلمة إلى مفهوم واسع، فاللفظة قد يكون لها معنى ثابت([5])، فيقوم بتفريغها وشحنها من جديد؛ لأنه يريد أن يستوعب كل حياة البشر بكل ثقافاتهم وأنساقهم الحضاريّة، فلو أنه صيغ لعصر معين لانتهى وأصبح تراثًا.

فلا بد أن ندرك أن لغته مفاهيميّة، وعندما نريد مفهوم كلمة بعينها نأخذ كل اشتقاقاتها، وكيف استعملها هنا، وكيف استعملها هناك، التعامل مع القرآن في عصر النزول كان ينزل من الكلي إلى الجزئي، تحدث قضايا والقرآن ينزل ليحلها. تحدث قصّة زينب فينزل القرآن فيحلها([6]) تحدث حادثة الإفك فينول القرآن ليحلها([7]) الآن القرآن بين أيدينا، فإن واجبنا أن نعرج بالجزئي إلى الكلي، نأخذ مشاكلنا ثم نأتي القرآن فنقول له عندنا المشكلة الفلانيّة، وهناك في عصر الرسالة كان الأمر بالعكس، فأنت الآن عليك أن تكيف مشاكلك وتفهمها فهمًا جيّدًا فإنك بلا شك ستجد الحل في القرآن.

---

[1] - ابن هشام هو جمال الدين عبد الله بن يوسف المصري ولد في القاهرة وتوفي فيها، كان من كبار علماء اللغة والنحو، له عدة مؤلفات مثل: أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك.

[2] - أبو علي الفارسي هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار من كبار علماء اللغة.

[3] - المحاسبي تقدم ذكره.

[4] - الراغب الأصفهاني له كتاب مشهور في تفسير مفردات القرآن توفي عام ٥٠٢هـ

[5] - للمفردات اللغويّة دلالات مركزيّة ولكن حين تنظم هذه المفردات وتتلاحم الوشائج بينها وتقوم العلاقات المختلفة نجد أن المفردات قد أخذت ظلالا وكونت معاني هامشيّةأخرى وشكلت مفهومًا كاملا.

[6] - قصة زينب بنت جحش إحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان قد تزوجها زيد بن حارثة، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رباه حتى سمي بزيد بن محمد، فلما طلقها زيد أمر الله رسوله أن يتزوجها حتى يؤكد انتفاء نظام التبني السالف في منع زواج زوجة المتبنى.

[7] - حادثة الإفك حادثة مشهورة نزلت آيات فيها بسورة النور

فإذا أخذنا بخصائص التحليل الدقيقة فإن علينا أن نأخذ مشاكل هذا المجتمع بعد التحليل والتفكيك والتركيب وفق أحسن المناهج، ثم نذهب إلى القرآن لنطلب منه الحل، فالحل موجود حتمًا، ولكن كيفيّة الوصول إليه تحتاج إلى منهج، فعندما تستنطق آية واحدة من القرآن حلا لمشكلتك، فهذا تعامل غير منهجي مع القرآن، وإنما تستنطق القرآن كقرآن؛ لأنك تذهب بجزئيتك إلى كلي القرآن.

مشكلة أسباب النزول

لم يكن للعلماء الأقدميين عناية كبيرة بهذا الجانب، وإنما هي قضيّة تساعد فقط التفسير، وتجد عند الأصوليين في ذلك: (إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)([1]). فجبريل عندما أعاد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القرآن لم يعد معه أسباب النزول، وأنا أعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهم أن القرآن خطاب عالمي، ولكي ننفي أي شبهة في ذلك نقطع الصلة بين أسباب النزول، وذلك ملاحظ في ترتيب القرآن الذي تم بصورة توقيفية، فالآيات التي نزلت في أول الأمر، تجدها في موضع آخر كجزء من سورة بعد أن تم ترتيب القرآن.

علوم القرآن الموروثة

كان هناك مؤشران في بيئة عصر التدوين ففي سنة ١٤٣هـ كما يقول الذهبي بدأ التدوين الرسمي للعلوم الإسلاميّة كالتفسير والحديث وغيرها حتى يتكامل في القرن الثالث (ومما دون من العلوم تلك العلوم التي سميت بعلوم القرآن كالتفسير والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وأسباب النزول، وغيرها، وهي تكونت في مؤشرين:

١ - اللغة وقد تقدم الحديث عنها.

٢ - الرواية والمأثور.

الرواية

إذا سألت أيهما أهم: المتواتر أم الآحاد. فالجواب هو التواتر؛ لأنه ما رواه جمع غفير يستحيل تواطؤهم على الكذب، أما الآحاد فهو ما رواه العدل الضابط، والمعلومة الواردة في إطار الحديث ما تأثير أن يرويها واحد أو أكثر؟ فالمعلومة لا تتأثر بطريق النقل فالنقل شيء والمعلومة شيء آخر.

ولا شك أن القرآن بحمد الله تناقلته الكافّة عن الكافّة وليس فيه شيء، ولكن تلك العلوم بنيت بالشكل، نجد مثلا في مسند أحمد حوالي خمسة أحاديث تتحدث عن المعوذتين هل هي

---

[1] - (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) قاعدة أصوليّة تعني أن عموم لفظ الآية أو الحديث يندرج تحته كل عمل مشابه للعمل المذكور المعين في الآية أو الحديث ولا يقتصر الأمر على من قيل فيه الحديث أو نزلت فيه الآية.

من القرآن؟ وأضاف أحدهم الفاتحة، وآخر أضاف الإخلاص، وأضافت الميمونة([1]) سورة يوسف. وللقاضي الباقلاني([2]) (الانتصار في تواتر نقل القرآن) قال: إن ما حصل أنهم وجدوا مصحف ابن مسعود([3]) ليس فيه المعوذتين.

وجاء هذا المنهج كذلك لأنه منهج رواية. ورغم كل شيء فإن هذه العلوم قد خدمت القرآن وعلومه خدمة عظيمة. لكن هل يغني عني أن أقول هذا رواه واحد أو جمع وغير ذلك، فهذا كان لمواجهة تحديات كانت قائمة.

إن قضيّة التفسير المأثور([4]) كتفسير الطبري([5]) وابن كثير([6]) وغيرهما، والتفسير العقلي([7]) كتفسير الرازي، والإشاري([8]) كتفسير محي الدين بن عربي والبلاغي كتفسير الزمخشري([9])، يأخذ عالم الاجتماعيّات منها جميعًا، ويجعلها مرجعه الأخير، لأن هناك عنصرين أساسيّين هما:

١ - التفسير التحليلي الذي يعتمد على قراءة القرآن كله؛ وجمع كل ما له علاقة بالموضوع، ثم الجمع والتحليل بعد ذلك.

٢ - التفسير الموضوعي وهو مع التحليلي لا يمكن الاستغناء عنهما في العلوم الاجتماعيّة.

النقطة الأخيرة

يستلزم عندما تكون هناك مشكلة وتريد من القرآن أن يجد لها حلا، وأنت عالم التنظير، فعليك أولا أن تعرف كيف تصوغ السؤال.

---

[1] - الميمونة فرقة من فرق الخوارج

[2] - الباقلاني هو القاضي أبو بكر بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني نشأ بالبصرة وأخذ من علمائها، وكان أحد تلاميذ مجاهد، وعنه أخذ علم الكلام وتوفي يوم السبت لست بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣هـ

[3] - عبد الله بن مسعود صحابي جليل من رواة الحديث وصاحب قراءة متواترة مشهورة توفي سنة ٣٣هـ

[4] - التفسير المأثور هو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول، وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية، فيذكرها ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح (انظر مباحث في علوم القرآن ص٣٥٨).

[5] - الطبري هو محمد بن جرير بن يزيد من أهل طبرستان من أكابر العلماء ولد سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ وهو صاحب جامع البيان الشهير في التفسير.

[6] - ابن كثير هو اسماعيل بن عمر ابن كثير أبو الفداء الدمشقي الشافعي مفسر ومحدث حافظ كان قدوة العلماء والحفّاظ ولد عام ٧٠١ وتوفي ٧٧٤.

[7] - يقع تفسير الرازي في ثمانية مجلدات كبار، واهتم فيه الرازي بالعلوم الرياضيّة والطبيعيّة والفلكيّة والفلسفيّة ومباحث الألهيات على نمط الاستدلالات الفلسفيّة العقليّة.

[8] - التفسير الإشاري هو تفسير صوفي يذهب إلى أن الآية لها ظاهر وباطن ويعتد بالباطن أكثر، ويقوم على أن وراء المعاني وخلف الكلام كلامًا آخر، وهذا التفسير إذا أوغل في الإشارات الخفيّة صار ضربًا من التجهيل، ولكنّه إذا كان استنباطًا حسنًا يوافق مقتضى ظاهر العربيّة فإنه يكون مقبولا.

[9] - هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد أبو القاسم الخوارزمي الزمخشري من كبار المعتزلة، مفسر محدث، متكلم، نحوي، مشارك في عدد من العلوم. ولد في زمخشر عام ٤٦٧ هـ وتوفي عام ٥٣٨هـ من تصنيفاته (الكشاف) في التفسير و (المفضل) في النحو و (أساس البلاغة) في اللغة.



تعريف السنّة

إن البحث عن السنّة النبويّة المطهرة يتم بنفس الحيثيّة التي بحثنا من خلالها القرآن الكريم، ألا وهي حيثيّة كونها مصدرًا للعولم أوالمعارف الاجتماعيّة.

ويمكن أن نقول أن تعريف السنّة لغة واصطلاحًا سواء باصطلاح الفقهاء أو اصطلاح الأصوليين على اختلافهم([1]). ولا نود الوقوف عنده طويلا لأن شيخنا عبد الغني قد تناول هذا بإسهاب شديد عند اللغويين وعند الأصوليين وعند الفقهاء، وتناول جميع القضايا المتعلقة بالتعريف في كتابه القيم (حجيّة السنّة).

ويمكن الرجوع إليه في كل ما يتعلق بتعريف السنّة ويان حقيقتها في اللغة وفي مصطلحات الأصوليين ومصطلحات الفقهاء أيضًا.

أما المعالم المتعلقة بالكتاب والسنّة وطبيعة العلاقة بينهما من منظور علماء الاجتماعيات، فالدكتورة منى أبو الفضل، قد وفقت في توضيح هذه العلاقة في كتيبها. إذا كان هذا الأمر قد اتضح فنستطيع أن نذهب إلى فقرة أخرى من فقرات هذا الموضوع:

أولا: لغة السنّة النبويّة المطهرة

السنّة كالقرآن الكريم من حيث حاجتنا إلى استحضار تلك المعالم الأساسيّة لفهمها، والتي ذكرناها سابقًا فيما يتعلق بالقرآن الكريم. فالسنّة النبويّة المطهرة واردة باللغة العربيّة، وكل ما قلناه فيما يتعلق بكون القرآن الكريم واردًا باللغة العربيّة، لكنه معبّر عن كلام الله جل شأنه، وهو صفة من صفات ذاته سبحانه وتعالى. كذلك السنّة واردة بكلام العرب.

تميّز لغة السنّة النبويّة المطهرة

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أفصح من نطق بالضاد بيد أنه من قريش كما قال عن نفسه صلى الله عليه وآله وسلم "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش". وبالتالي ففهم لغة السنّة وتراكيبها ومتنها وأسلوبها جاء على خصائص العرب ومألوفها، وما درجت عليه في كلامها. ولكن فصاحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العليا

---

[1] - السنّة لغة السيرة والطريقة حسنة كانت أو قبيحة قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (من سن سنة حسنة ...الخ)
وقال خالد بن عتبة الهمزي:

فلا تجز عن سيرة أنت سرتها فأول راضي سشنّة من يسيرها

وقد استعملت في القرآن بمعنى الطريقة. قال الراغب الأصفهاني سنّة الله طريقة حكمته نحو (سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا). والسنّة عند الفقهاء ترادف المندوب والمستحب والتطوع والنافلة والمرغب فيه، وتطلق عند الفقهاء بصورة عامة على ما يقابل البدعة كقولهم فلان من أهل السن ة و (فلان على السنّة). إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وليس هذا المعنى هو المقصود هاهنا وإنما المقصود في هذه الحاضرة – معنى السنّة عند الأصوليين وهي ما صدر عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن – من فعل أو قول أو تقرير (انظر حجيّة السنّة للدكتور عبد الغني عبد الغني عبد الخالق).

المتميّزة جعلته عليه الصلاة والسلام يؤتي جوامع الكلم([1])، فيقول في كلمات قلائل ما لا يقوله سواه في قصيدة أو خطبة أو كلمة أو سواها.

وبذلك نجد أن جمهرة خطبه عليه الصلاة والسلام والتي جمعها بعض الباحثين، وجاءت متناثرة في كتب الحديث، نجد أطولها، مثلا خطبة حجة الوداع وهي لا تتجاوز صفحة ونصفًا، أقل من صفحتين بأي حال.

ولديه خطب عليه الصلاة والسلام قد لا تتجاوز نصف صفحة أو بضعة أسطر. لكنه صلى الله عليه وآله وسلم أوتي جوامع الكلم، وهي منة من الله جل شأنه، لتتكامل هذه السنّة وتتعاضد مع القرآن في لغتها.

أجناس الرواة

عربيّة السنّة لا بد أن تلحظ عندما نحاول التعامل مع السنّة أو بيان مناهج أو منهجيّة التعامل مع السنّة النبويّة المطهرة. وهنا في الحقيقة أود أن أشير إلى شيء يقال في النفس، أو قد يكون مجرد خاطر، أو تساؤل، لكن بين طلبة العلم يحدث أن يثار مثل هذه الأمور، من المؤسف حقيقة أن نقول إن العرب انصرفوا عن خدمة السنّة في صدر الإسلام. ولم يولوها العناية التي تستحقّها، ولم يعطوها ما تستحق.

فقد كان أئمّة السنّة وعلماؤها وحفّاظها عامّتهم من الأعاجم، فالبخاري من بخارى([2])، ومسلم من نيسابور([3])، والنسائي من نسأ([4])، وابن ماجة([5]) من كذا. فلا نجد من العرب إلا أحمد بن حنبل الشيباني، ويقال إن أصله فارسي كذلك.

قالوا في تفسير هذه الظاهرة، وهي ظاهرة تستحق الدراسة، قالوا إن العرب اشتغلوا بالسياسة والقيادة. وتركوا العلم للموالي. قد يكون هذا تفسيرًا وقد يكون سببًا وقد يكون غير ذلك، لكنّه قد أثر كثيرًا.

نقل السنّة بالمعنى

من يرجع إلى كتب الحديث وخاصّة شروح الحديث، وبعض التراتيب والألفاظ، ويقوم بعمليّات الدرس والتحليل والتقليب، سوف يدرك أهميّة هذه المشكلة أو هذه القضيّة، خاصّة أن عامّة الأحاديث قد نقلت بالمعنى. ومن المعروف أن العلماء منذ البداية أذنوا وسمحوا ان

---

[1] - جوامع الكلم هي الكلم الجوامع من إضافة الصفة للموصوف بمعنى الألفاظ القليلة التي جمعت معان كثيرة.

[2] - البخاري سبق تعريفه

[3] - مسلم بن الحجاج سبق تعريفه

[4] - النسائي هو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ولد بنسأ بنواحي بلخ سنة ٢١٥هـ شافعي من مشاهير المحدثين له كتاب (السنن الكبرى) المشهور ويسمى هذا الكتاب (المجتبي) وسنن النسائي وتوفي سنة ٣٠٣هـ

[5] - ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني ولد سنة ٢٠٩هـ صنف في السنن والتاريخ والتفسير، توفي بقزوين سنة ٢٣٧هـ

يجري تناقل الأحاديث بالمعنى، ولم يكن هناك إصرار على اللفظ، بل لم يكن ضبط اللفظ ممكنًا بالشكل الدقيق في تلك المرحلة.

ولذلك اختلف الناس حتى في أبسط الأمور التي يشاهدونها يوميًّا عدة مرات، مثل كم عدد ألفاظ الآذان، التكبيرات أربع، وفي الشهادتين.

ثم نختلف أيضًا في الآذان نحو (حي على الصلاة) عند السنّة (حي على خير العمل) عند الشيعة، ومرة واحدة عند بعض المذاهب ومرتين عند مذاهب أخرى، والإقامة نصف الآذان عند بعض المذاهب، وكالآذان عند مذاهب أخرى، مع أن هذا شيء يسمع يوميًّا خمس مرات، وقد صلى المئات خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن ولأمر لم يكن الناس يحرصون على تناقل هذه السنن بشكل دقيق وشكل منضبط، فكان ما كان.

قضيّة اللغة

فإذا أضفنا إلى هذا أن أئمة الحديث معظمهم كانوا من هؤلاء الموالي على جلالة أقدارهم وأهميّة ما قدّموا، وأن الإسلام قد عرّبهم، وعرّب لغاتهم، ولكن من المعروف الآن بالنسبة لما نعرفه من قضيّة تعلم اللغاتدائما أن هناك الذي تعتبر اللغة لغة أمه وتعلّمها على شكل معين، ومن تعلمها على كبر هذا شكل آخر، واقتران الفكر باللغة أو بالتذوق أو سوى ذلك.

هذه إشكاليّة نشير إليها ونحن نتكلم عن اللغة العربيّة كمحدد أو كمَعلم من معالم الفهم عندما نعالج هذا، لذلك لا بد أن أقف طويلا عند هذا، إذ أن هناك نماذج كثيرة أسيء فهمها وجنى شراح الحديث، بل وجنى الفقهاء أيضًا على ذلك الفهم الذي لم يكن فهمًا مبنيًّا على طبيعة اللغة وقراءة نظمها، فهذا فهم فيه الكثير من المشكلات، وقد أثار هذه المشكلة ابن السيد البطليموسي صاحب كتاب (التنبيه)، والكتيّب الصغير الذي كتبته عن أدب الاختلاف.

فقضيّة اللغة تعتبر سببًا أساسيًّا من أسباب اختلاف العلماء وعلاقتها بهذا الأمر كبيرة. من هنا كان علينا في مسألة التعامل مع السنّة أن نعرف السنّة، وعلينا أن نعرف لغة قريش، وعلينا أن نعرف فصاحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلينا أن ندمن قراءة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكي نتشرب الأسلوب ونعرف كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعبر عما يريد، وذلك عون كبير للباحث في هذا المجال عندما يأتي لدراسة الحديث ومعرفة دلالاته.

ثانيًا: الوحدة البنائيّة

إن السنّة النبويّة تتمتع بوحدة بنائيّة داخليّة، ووحدة بنائيّة مع القرآن الكريم. ولا يمكن أن تجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو رسول رسول الله ونبيّه وصفوته من خلقه، لا

يمكن أن تجد فيه اضطرابًا واختلافًا، وتناقضًا وتعارضًا، هذا أمر يجب أن ندرك بأنه غير موجود.

إن التغيير باختلاف البيئات والأشياء والقضايا يكون مع عدم توافر العصمة، ولكن التغير والاختلاف مع توافر العصمة صعب مستحيل، فإذا كان الله جل شأنه قد خاطب نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وقال له عن رسل سبقوه: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠)، وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (سورة الأنعام: ٨٩). ثم يأمره بالاقتداء بهم. لو أن هناك تغيّرًا واضطرابًا، لا يمكن أن يكون هذا الإنسان أسوة زمثالا ونموذجًا للبشريّة ككل، في هذه الحاة يجب أن ندرك أن هناك وحدة بنائيّة.

منهج ابن حنبل في الاستشهاد بالحديث

أحمد بن حنبل أحصيت له في بعض المسائل في القضيّة الواحدة ثمانية وعشرين قولا، ولدى الحنابلة كتاب مهم يمكن الاطلاع عليه، (الإنصاف في مواقع الخلاف) للشيخ سليمان المرداوي. ففي الإنصاف يسجل روايات متعددة عن الإمام أحمد، في هذه الروايات يقول الإمام أحمد مثلا في القضيّة الواحدة يأتيه حديث فيأخذ به، ثم يأتيه حديث آخر فيقول بمقتضاه، وثالث فيقول بمقتضاه، ورابع فيقول بمقتضاه، لماذا؟ لأن منهجيّته منهجيّة الأخذ بالرواية، ما دام السند قد صح.

فهو يتحرج أن لا يأخذ بالحديث، فيأخذ بالحديث ويترك لك مسئوليّة التنفيذ والاختيار، حتى لو كان هناك تناقض مع القول الأول، فهو يريد أن يبرئ ذمته عند الله عز شأنه. قيل له ما مكانك أنت بعد ما جاءتك هذه الثمانية والعشرون تعيد النظم وتدرسها مع بعضها وتخرج برأي.

قال أنا أتحرج لأني أخشى الله جل شأنه أن أرفض حديثًا يكون صحيحًا أو أحمله على حديث آخر ويكون ليس من حقي أن أفعل هذا.

هذه قضيّة ورع من ناحية، وقضيّة بناء منهجيّة من ناحية أخرى. لذلك ورد في المسند كثير من القضايا التي لم يكن لها أن تورد، ولم يكن لها أن تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأثبت العلماء كثيرًا من الأحاديث الموضوعة في هذا المسند، وكثير من الأحاديث الضعيفة ونحوها.

قضيّة عدم تناقض السنّة واضطرابها

النظر إلى السنّة يجب أن يكون على أنها وحدة صادرة عن وحي وشخص واحد هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي ينبغي التعامل معها كوحدة بنائيّة وأن لا نقرأ معناها

مجزّأة كما نفعل اليوم. نحن نضرب السنّة بعضها ببعض، يدخل المسجد شخص يروي أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كذا افعلوا وكذا...الخ، ويأتي آخر يرد عليه مستخدمًا حديثًا آخر، هذا لا يجوز، هذا ضرب للسنّة بعضها ببعض.
وضرب للقرآن بعضه ببعض، ولو أن النس وعوا أن القرآن يتمتع بوحدة بنائيّة، وأن السنّة كذلك تتمتع بوحدة بنائيّة، وأن العلاقة بينهما، علاقة عضويّة، وأن الكتاب يصادق على السنّة، ينبغي أن ننظر إلى هذه الوحدة ونستحضرها باستمرار، لما وقعنا في كثير مما نقع فيه الآن. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان حينما يريد أن يستدرك بنفسه، "كنت قد نهيتكم عن لحوم الإضاحي لأجل الدّافة([1]) ألا فكلوا وادّخروا"([2])، إلى آخر ذلك. فليس في سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يعطي كل هذا الذي نراه، في عالمنا اليوم توفر الطباعة، والحاسوب، وكل الوسائل التي يمكن أن تخلّصنا من هذه الفوضى التي نتعامل بها مع سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثالثا: الجمع بين القراءتين

بنفس الصورة التي قلناها في القرآن الكريم أن الجمع بين القراءتين قراءة الكون وقراءة السنّة لا بد منهما. فحينما يروى لنا شيء من السنّة يخالف سنن الكون فلا بد من أن نتوقف، ولذلك سآتي إلى نقطة أهر وهي:

مقاييس نقد متون الحديث

عندما يجيء واحد يروي حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناقض سنن الكون فلا يمكن أن نقبله، لماذا؟ لأن هناك جمعًا بين القراءتين. نحن نقرأ السنّة ونفهمها بالكون ونفهم الكون أيضًا بالسنّة النبويّة المطهرة. فعندما يأتي هؤلاء الدجّالون القصّاصون الذين ملأوا كتب المواعظ أخبارًا لا علاقة لها بالسنّة النبويّة المطهرة، يكون هذا نوعًا من الانتقاض. فإذن الجمع بين القراءتين أيضً لا بد أن يتم مع السنّة. وعلينا أن ننتبه لهذه السنن التي تروى علينا صباح مساء وفي بعضها كثير مما يتناقض مع القراءة الأخرى، أو يثير من المشكلات ما يثير!

رابعا: القراءة المفاهيميّة

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوتي جوامع الكلم، وهو أفصح من نطق بالضاد وكلامه مليء بالمعاني، وتلك البساطة التي يتعامل بها الناس مع كثير من السنن والأحاديث

---

[1] - الدافة هم قوم فقراء كانوا قد نزلوا المدينة في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ثم ارتحلوا، وكانوا يحملون الدفوف ولأجل ذلك سمّوا بالدّافة.

[2] - رواه مسلم في كتاب الأضاحي باب بيان (ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام) وروى البخاري أيضًا في صحيحه عن الأسلمة بن الأكوع في كتاب الأضاحي باب (ما يؤكل من لحوم الأضاحي ويتزود منه) قال (كلوا وأطعموا وادّخروا فإن ذلك العام أي العام الذي نهي عن الإدّخار كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا فيه).

أمر يحتاج إلى إعادة نظر. فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتحدّث مع أهل عصره وحدهم، بل كان يتحدث إلى البشريّة عامّة حتى يوم الدين، يوضح لهم هذا القرآن ويبين لهم قيمه ومعانيه. فإذا أردنا أن ننظر إلى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجدناها ألفاظًا عاديّة جارية على مجرى خطاب تلك البيئة. إذا قلنا أن الرسالة انتهت عند الصدر الأول والآخرون مهملون فإن الله ما كان ليفعل ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله إلى العالمين كافّة، ورسالته دائمة خالدة باقية إلى يوم الدين.

فقراءتنا لسنّته عليه الصلاة والسلام ينبغي أن تأخذ هذا البعد، وأن نعرف أن ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمّلة بالمعاني وبالمفاهيم في سائر الدوائر التي هي خارج دائرة التصرّف والقول البشري.

أسباب ورود الحديث

كذلك هنالك أسباب ورود الحديث الشريف، إذا كان هناك أسباب نزول للقرآن الكريم، فبالنسبة للحديث الشريف هناك أسباب ورود، لكن أسباب الورود هذه لا تغير عموم أحاديث الرسول ولا عموم لغتها وإنما القيد على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم. وليس أسباب ورود الحديث؛ لأن القرآن الكريم والسنّة يتكاملان تكاملا متينًا. وفي دائرة هذا التكامل تنقطع الصلة بين الحديث وبين أسباب وروده، إلا إذا كان هناك ما يقتضي أن يكون فيه خصوصيّة له عليه الصلاة والسلام أو خصوصيّة لأحد من أصحابه أو أمر مختص بواقعة معيّنة لا يتجاوزها، وهذه أمور لا بد من فهمها ولا بد من إدراكها ونحن نتعامل مع السنّة.

منهجيّة التعامل مع السنّة

كذلك لا بد من قراءة السنّة بمنهجيّة تتجاوز المنهجيّة الحالية في قراءة السنّة، والاعتماد على صحّة الرواية يزيد الفوضى التي نحن فيها الآن – الآن والحمد لله وقبل الآن – لو درسنا أسباب افتراق المسلمين إلى فرق واختلافهم على كتاب ربهم وسنّة نبيّهم فمعظم هذا ناجم عن أن هذا حديث قد صح عندي ولم يصح عندك وهذا حديث صح عندك ولم يصح عندي.

أقول أنا بمقتضى ما صح عندي، وأنت تقول بمقتضى ما صح عندك، وترفض ما قاله الآخرون، الآن نحن لا نحتاج إلى هذا كثيرًا، كتب السنّة الآن متوافرة وما طبع منها أكثر مما بقي مخطوطًا وهي في متناول الأيدي. وهناك الوسائل التي أعطاها ربّنا سبحانه وتعالى لأهل هذا العصر، مثل الحاسوب وسواه والتي نستطيع أن نجمع السنن ونجمع الرواة ونقوم

بعمليّات غربلة ودراسات عديدة تساعدنا كثيرًا على تطبيق فكر المنهج لا فكر التجزئة على سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
كذلك تعاملنا مع السنّة في هذه المرحلة، لا بد أن يأخذ تعامل العروج من الجزئي إلى الكلي. فالسنّة أمر كلي وجاهز بين أيدينا بموسوعاتها، فإذا حاولنا أن نعيد قراءتها على أساس تنزيل الكلي على الجزئي فإن هذا الاضطراب والاختلاف الذ نراه بين المسلمين سيتزايد وينمو ويكثر، ولكن من المفروض الآن أن نعرف، أن السنّة قد اكتملت، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك لنا هذه السنّة المحفوظة بحفظ الله. لذلك حينما تكون لدينا مشكلة، وحينما تكون لدينا قضيّة لا نذهب فنلتقط أقرب حديث نجده بين أيدينا، ونقول هذا الذي يتعلق بالموضوع، وإنما نعني بتكييف الواقع ودراسة جوانبه كلها. ثم نجمع دائرة ما في سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما له علاقة بها. ونقوم بعمليّة ترتيبه وربطه بآيات الكتاب الكريم التي تكون قد وردت في الموضوع. ثم نقوم بعمليّة التنظير أو عمليّة الاجتهاد في هذا.

دور العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة في التعامل مع السنّة

كذلك لا بد من أن نرجع في السنّة إلى نوع من التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي في سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والفهم الصحيح كذلك لا بد من الاستعانة بهذا الذي نسمّيه اليوم (بالعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة) ففيها مؤشرات كثيرة تعيننا على تفسير مراد رسول الله، وعلى تفسير كثير من الظواهر التي كانت في تلك البيئة وعلى دراسة عصر النبي، ومن المؤسف أن هذه الدراسات لا تزال قليلة جدًا بل نادرة، وقليل من الباحثين هم الذين ينطلقون إلى هذا النوع من الدراسات، ولا أذكر إلا دراسة محمد عزت دروزة (عصر النبي وبيئته) وهذه دراسة مرتبطة بالقرآن الكريم حاول استنباط ما وصل إليه، أو ما استنبطه من خلال آيات القرآن الكريم.
لكن لم تجر دراسات متعمّقة لعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعصره في مكّة مثلا فيه آلاف الأسئلة يمكن أن نثيرها. فيؤدي أن أجد أحدًا في التربية يستطيع أن يقول مهلا لماذا كانت العرب ترسل أبنائها بعد الولادة من الحواضر (مكة والمدينة) مثلا إلى البادية في سن السابعة وتستعيدهم، ماذا كان في البادية آنذاك؟ قد تقول لتعليمهم الخشونة، حسنًا فالحواضر فيها الخشونة، ويمكن أن نعلّمهم الخشونة داخل البلد، ماذا كان هناك؟ قالوا يعلّمونهم الفصاحة لأن البوادي كانت أفصح من الحواضر، الأمر يحتاج لدراسة، وهذه تبقى مجرد عبارة عن خواطر حتى تأتي دراسة موثّقة في ذلك.

أولا: علوم الحديث رواية

فهي تلك العلوم التي تهتم بالإسناد ، أي سلسلة الرواة عن فلان عن فلان، فالراوي ينبغي أن يكون عدلا تام الضبط متصل([1]) السند إلى مستواه، فما هي عدالة الراوي؟ وما الذي يجرح([2]) الراوي؟

قضايا الجرح والتعديل: صادق، وضاع، كذاب، دساس... الخ. فالعلوم المتعلقة بقضايا السند وقضايا رواة الحديث، هذه علوم تسمّى (بعلوم الحديث رواية)، وشروطها كثيرة جدًا، ومعروف إن المسلمين قد برزوا في هذا المجال، وفي الحقيقة تعتبر هذه العلوم، من العلوم التي هي من ابتكار هذه الأمّة، بمعنى أن لم تكن هناك علوم موجودة قبلها، وحتى الآن لم توجد علوم مماثلة في هذا المجال، حوالي نصف مليون إنسان الذين يمثلون الصدر الأول من الصحابة حتى القرن الثالث. هؤلاء وضعوهم على طاولات تشريح، وتمت دراسة كل منهم رجلا كان أو امرأة، حتى من روى حديثًا واحدًا وقال العلماء فيه رأيًا. ولكن هذه الآراء في هؤلاء الرجال، هل نستطيع أن ننفي عنهما التحيّز ونقطع لها بالموضوعيّة؟ الجواب: لا، من الممكن أن يثق الإمام البخاري بشخص، ويقول عدل وضابط لأنه يعرفه، ونجد محدثًا آخر مثل مسلم يقول عليه هو لين الحديث مثلا، أو قليل الضبط أو مجروح في عدالته أو كذا، فهذه العلوم فيها اختلافات وينبغي الآن وقد أنعم الله علينا بالحاسوب والوسائل، (بدلا من أن يذكر في الرجل الواحد عشرون رأيًا)، هذا يقول عدل، وهذا يقول ضابطًا، وهذا يقول ليس بعدل، وهذا يقول صادق، وهذا ليس صادقًا.

هذا فيما يتعلق بعلم الحديث رواية علم الأسانيد والرجال ودراستها وتصنيفها والتوثيق والتصنيف وسواها، وقد قدّم المحدثون لهذا العلم خدمات جليلة. وكتب البخاري تاريخه الكبير وتاريخه الصغير، وابن أبي حاتم الرازي وسواهم، وكتبهم شائعة ومنتشرة في هذا الموضوع، وابن حجر كتب أسد الغابة وكتب الإصابة وغير ذلك، فلم يعد هناك شخص ممن وضع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئًا إلا وقد أجريت عليه دراسة.

دور النساء في خدمة السنّة

ومن الطريف أن الإصابة ترجمت لثلاثمائة راوية، يعني محدثة، أنثى من المحدثات، وكثير من المحدثات بلغن ما يسمّى برتبة أمير المؤمنين في الحديث، وهو الذي يحفظ مائة ألف

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الكسوف

[2] - يجرح الراوي معناه يشكك في روايته في روايته للحديث بألفاظ مخصوصة اصطلح عليها علماء الحديث كأن يقال هو وضاع أو متروك أو ليس ثقة أو غير ذلك.

حديث أو ما يزيد، وكثيرات أخذن لقب (الشيخة)، وهو لقب من ألقاب المحدثين تكون قد بلغت مستوى عاليًا جدًا وبدأ الناس يأخذون عنها.

ولم يكن العلماء يأنفون من أن يأخذوا عنهن. يذكر ابن الجوزي وسواه أنهم كانوا يذكرون هذا في مشايخهم، فيقول: وكانت شيختي فلانة أخذت عنها كذا، ودرست عليها كذا...الخ. هذا ذكرته لنعرف مدى تخلّفنا عن إسلامنا.

ثانيا: علم الحديث دراية

نأتي ثانيًا لعلم الحديث دراية، ألا وهو علوم نقد المتون([1])، ولكن للأسف الشديد هذه العلوم لم تحظ منا بالعناية الكافية. والمحدثون بما فيهم الأوائل الكبار، كما قلت صرفوا جهودًا جبارة وهائلة في عمليات علم الحديث رواية، وحاولوا أن يدرسوا سائر الرواة ووضعوا قواعد ممتازة جدًا. وإذا أردنا الآن أن نغير النظر فيها فقد لا نستطيع أن نضيف الكثير في عملية نقد الرجال، ووزنهم في الحفظ والضبط وكذا.

من اصطلاحات المحدثين في الرواية

من مصطلحاتهم مثلا يقولون: فلان أدركته غفلة الصالحين، فيهم طيبة، فأحيانًا يمر عليه شخص مريب لكنه يغفل عنه لصلاحه، يقال إن فلانًا أدركته غفلة الصالحين فروى عن فلان، وفلان لا يستحق أن يروى عنه مثلا.

تجدهم يقولون متروك، أما المتروك وضاع، دسّاس، وتستطيعون أن تلجأوا إلى أي كتاب من كتب المصطلح مثل (المقدمة) لابن الصلاح، و (تدريب الراوي) للسيوطي، و (نخبة الفكر) لابن حجر([2])، و (الباعث الحثيث) لابن كثير، أي كتاب من هذه الكتب فيه الكثير من التفاصيل حول هذا الموضوع.

نقد المتون

لكن الأمر الذي أريد الوقوف عنده قليلا ونحن نتحدث عن مناهج التعامل مع السنّة، علم الحديث دراية أي نقد المتون لم يأخذ حقّه الكامل مع أنهم وضعوا قواعده. لكن لم يكن هناك تشغيل يذكر لهذه القواعد، ولذلك الآن يمكن أن نملأ مكتبة بكتب في الرجال. ولكن حينما نأتي إلى الكتب التي في نقد المتون لا نستطيع أن نجد إلا عددًا محدودًا جدًا ثلاثة أو أربعة أو خمسة كتب هي المشهورة ويكون تداولها أو استعمالها نادرًا جدًا.

---

[1] ـ نقد المتون هو تمييز أصل الحديث، وإخضاعه لعدة شروط.

[2] ـ ابن حجر العسقلاني هو أحمد بن علي بن محمد أبو الفضل الكناني العسقلاني، المصري المولد والمنشأ الشهير بابن حجر نسبة إلى حجر وهم قوم يسكنون بلاد الجريد في تونس، من كبار الشافعيّة، محث فقيه، مؤرخ، تولّى الإفتاء بدار العدل والخطابة بجامع الأزهر وتولّى القضاء، زادت تصانيفه عن مائة وخمسين مصنّفًا ولد عام ٧٧٣هـ وتوفي ٨٥٢هـ

وفي الحقيقة وجدت الشيخ مصطفى السباعي في كتابه (السنّة النبويّة) جمع ستة عشر بندًا اعتبرها البنود الأساسيّة في مسألة نقد متون الحديث، وذكر أن باحثًا سعوديًّا نال درجة الدكتوراه في مقاييس نقد متون الحديث، ذكر فيه ثماني قواعد، وأورد أنا تقريبًا في الثمانية كا ما أورده السباعي ، ولكنّي أفضّل أن أستخدم ما أورده السباعي باعتباره أكثر تفصيلا وأعود للباحث على معرفة هذه القواعد.

هناك شرطان لكل حديث، والحديث يُقبل إذا توافر فيه

الشرط الأول: صحة السند. والشرط الثاني: أن يجتاز اختبارات نقد المتون. فإذا صح السند وأصبح الحديث مفروغًا منه من حيث الرواية، ينتقل إلى مقاييس نقد المتون لكي يحلل النص وهي:

<u>الأولى: أن لا يخالف صريح محكم القرآن أو يخالف محكم السنّة، أو يخالف معلومًا من الدين بالضرورة</u>. فإذا وجدنا الحديث يخالف محكم القرآن أو يخالف حديثًا أصح منه وأشهر منه وكان محكم السنّة أو متواترها، أو أن الحديث جاء على خلاف المعلوم من الدين بالضرورة فإنه يُرفض حتى لو أنه صح سنده.

<u>الثانية: أن لا يكون مخالفًا للمشاهدة والحس</u>، يعني إذا جاء الحديث فينبغي أن لا يخالف أمورًا مشاهدة أمورًا حسّيّة[1] في عصر الرسالة، فيأتي على خلاف المعهود والمعروف، وهو لا علاقة له بغيب أو بيان قرآني، في هذه الحالة يكون الحديث موضع تساؤل.

<u>الثالثة: أن لا يكون مخالفا لما ثبت من سنن الكون والخلق</u>، إن السنن الكونيّة، والسنن الطبيعيّة، سنن الخلق، فإذا جاء الحديث مخالفًا لها أو مغايرًا لها، آنذال يتوقف فيه.

<u>الرابعة: أن لا يكون ركيك العبارة، فاقدًا للفصاحة</u>[2]، فهناك كثير من الأحاديث التي يرويها القصّاصون والإخباريون والتي تروي قضايا الترغيب والترهيب، ونجدها عند الوعاظ كثيرًا من هذه الأحاديث لا يمكن أن تصبح لما فيها من ركاكة لفظ، ولما فيها من كلام مولد (يعني كلام ولدته الأعاجم بعد عصر الرسالة).

---

[1] - يجب أن لا يخالف الحديث المروي العقل والمشاهدة وأن لا يكون غير قابل للتأويل إذا جاء كذلك قيل لعبد الرحمن بن زيد حدّثنا أبوك عن جدّك: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ''إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين'' قال نعم وواضع هذا الخبر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو مشهور بكذبه وافترائه.

[2] - يجب أن يكون ألفاظ الحديث المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تناسب أفصح العرب وإلا فإن الأسلوب الركيك يشكك في صحّة الحديث وهذه القاعدة يسهل إدراكها على المتمرّسين بهذا الفن، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: ''المدار في الركة على ركة المعنى فحيثما وجدت دلّت على الوضع وإن لم ينضم إليه ركّة المعنى''.

الخامسة: أن لا يكون منافيًا لبديهيّات العقول([1]) أو لأي دليل مقطوع به.

السادسة: أن لا يكون مخالفًا للقواعد تاعمّة في الأخلاق، أو الحكم المتسقة مع مقاصد القرآن.

السابعة: أن لا يكون مخالفًا للبديهي من الطب([2])، يعني إذا كان الطب يقول شيئًا ثابتًا بالتجربة ويجيء حديث يقول خلافه فهو ممنوع. مثلا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثبت أنه استحم لمّا أصابته الحمّى وأمرهم أن يأتوا بقرب من ماء من آبار عديدة وتفرغ عليه، ولكن ما هو نوع الحمّى التي كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مصابًا بها بحيث ينجح الماء البارد في إطفائها؟ لا نعرف.

الآن يسأل الطبيب نقول له ما هي أنواع الحمّى التي يفيدها الماء البارد؟ لأنه هناك أنواع من الحمّى إذا استحم المحموم بها بالماء البارد فإنه يتضرر، فهل نقول لكل محموم هذه سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ما دام عندك حمّى اذهب فخذ سبع قرب ماء من آبار مختلفة وصبّه على رأسك؟

الثامنة: أن لا يكون داعيًا إلى رزيلة يتبرأ منها الشرع.

التاسعة: أن لا يأتي موافقًا لعقيدة الراوي الداعي إلى مذهبه فيما يتعصب له([3])؛ لأننا نعرف أنه كان من أهم أسباب الوضع أن هناك أناس انتحلوا نحلا وابتدعوا بدعًا، وكوّنوا مؤسّسات أو أحزابًا أو قواعد أو فرقًا، وبدأوا يعزّزون هذا كله بأحاديث يضعونها على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد كان أهم وسيلة إعلاميّة في الوسط الإسلامي هي الأحاديث. يقولون أنه كان هناك قصّاص في أكبر مساجد بغداد جالس للقصص. فيما أرويه بسندي عن أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه كذا وكذا، أحمد بن حنبل كان حاضرًا هو وإسحاق بن راهوية بالمجلس في المسجد، وبعد أن انتهى، قال له أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا أحمد بن حنبل، وإسحاق قال له: أتعرفني؟ قال: لا، قال له: أنا إسحاق بن راهويه، كيف رويت عنّي وأنت لا تعرفني؟

---

[1] - وضعت بعض الأحاديث التي تنافي البديهيّات ولا يقبلها العقل نحو ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الباذنجان شفاء من كل داء" وقوله: "الباذنجان لما أكل له" فمن البديهي لو كان ذلك مقبولا في حكم العقل لما احتيج إلى غير الباذنجان في المداواة وهذا نوع من السخف لا تجوز نسبته له صلى الله عليه وآله وسلم

[2] - وضعت كثير من الأحاديث في الطب النبوي وكانت تخالف المعهود في الطب قديمًا وحديثًا، ومثال ذلك ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "كل شيء أخرجته الأرض فيه داء ودواء إلا الأرز فإنه شفاء لا دواء فيه"، يقول ابن القيّم: إن هذا الكلام مما يستقبح نسبته إلى آحاد العقلاء فضلا عن الأنبياء.

[3] - بدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين للهجرة حين تنازع المسلمون شيعًا وأحزابًا وانقسموا سياسيًّا فكان الانتصار للمذاهب منذ أول الأمر منذ أول الأمر أهم الأسباب الداعية إلى وضع الأخبار.

قال: أنا والله ما رأيت مثل اليوم يومًا ومن قال لكما إن الله لم يخلق أحمد بن حنبل إلا أنت ولا إسحاق بن راهويه إلا أنت؟

عاشرًا: أن لا يشتمل على سخافات وسفاسف يترفع عنها العقلاء([1])، يعني أحيانًا هناك كلام يروونه على أنه أحاديث نجد فيه شيئًا لا يليق بالإنسان العدي، أذكر مرة أحد خطباء الجمعة في بلد ما ذكر حادثة جبلة بن الأيهم مع عمر مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال يا شاهدت هذا قد فعل كذا، فقام إليه رسول الله وضربه (شلوتًا)، رسول الله على خلق عظيم في حياته كلها لا يضرب بيد ولا بغيرها، الآن أخرجته يضرب شلوتًا، هذه أمور لا بد أن نلحظها بقطع النظر عن السند أو الرواية، ولا بد أن يخضع الحديث لمثل هذا.

حادي عشر: أن لا يخالف الوقائع التاريخيّة المتواترة عن عصر النبوّة، يجب أن لا يخالف الحديث الوقائع التاريخيّة الثابتة عن عصر النبوّة أو ما يثبت خلال أشياء مجسّمة وشاهدة، وللأسف الشديد هدمت معالم المدينة الآن وتغيرت كثيرًا جدًا، ولعل المدينة المنوّرة التي كانت على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصبحت الآن داخل الحرم.

لو أن هناك مثلا نوعًا من التسلسل التاريخي وهناك حفريات وخرائط وإدراك لجغرافيّة المدينة المنوّرة، فعندما يقول أحد الناس مثلا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام قادمًا من شمال المدينة بعد ما تغدّى عند فلان وحدث كذا. إذا كنا عارفين الشمال والجنوب وماذا الذي يقع في الجنوب، وخارطة المدينة ثم يأتي حديث يشير إلى شيء ما يخالف هذه الجغرافيا بالتالي نستطيع أن ننقاش هذا الحديث أو أن نردّه لأنه يشترط فيه أن لا يخالف الوقائع التاريخيّة المتواترة عن عصر النبوّة، أو ما ثبت من خلال أشياء مجسّدة معرفة أصبحت معلومة لا نقاش فيها أو تثبتها معارف أخرى.

ثاني عشر: أن لا يخبر عن الأمر العظيم الذي يشهده الكافّة بخبر ينفرد به راو واحد، هناك أمر مثل (انفلاق القمر) عندما يجيء فيه راو فيقول (فانشق القمر فرأيت فلقة منه عند حجر رسول الله عليه الصلاة والسلام والفلقة الأخرى معلقة في السماء)، هل يمكن أن يقبل هذا. لا يمكن أن يقبل لان حدوث أمر كهذا بالفعل لا يمكن أن لا يراه إلا هذا الشخص أو اثنين أو ثلاثة.

ثالث عشر: أن لا يكون معقولا في صفات الله أو رسله وفي أصول العقيدة، فكثير من الإسرائيليّات التي تروي، يعني كل قصص الأنبياء تقريبًا أدرجوا فيها كثيرًا من

---

[1] - من العيب والخطورة نسبة حديث لا يفيد إلا معنى سخيفًا لا ينتفع به في أمر دين ولا دنيا كقولهم ناسبين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الديك الأبيض حبيبي وحبيب جبريل حبيبي" فهو سخف لا يجوز نسبته إليه صلى الله عليه وآله وسلم

المخازي والأمور المرفوضة. فسيّدنا داود كما زعموا رأي زوجة هذا القائد الذي كان عنده فأرسله للجبهة حتى يموت فأنزل له الله ملكين يقولان له أن أخي عنده تسع وتسعون نعجة (وكان لداود تسع وتسعون امرأة) ولي نعجة واحدة فقال لي اكفلنيها وعزّني في الخطاب، فإن طائفة من المفسّرين يفسّرونها بأن داود رأى امرأة هذا وأعجبته.

هذه أحاديث أكاذيب بني إسرائيل لا يمكن أن نقبلها لأنها مخالفة لمعتقداتنا في عصمة الأنبياء ونزاهتهم ومخالفة لأصول العقائد، فكيف نسمح بأن تروى وأن يؤخذ بها؟!

رابع عشر: أن لا يكون بالحديث ثواب عظيم على الفعل الصغير أو المبالغة في الوعيد على الأمر الحقير، مثلا يقول لك (من قال لا إله إلا الله، جعل فيه كذا)، ويقول: (ويوم الجمعة إذا اغتسل أحدكم وقال كذا أنبت الله من قولته تلك أو من تسبيحته تلك شجرة لها سبعون ألف فرع في كل فرع سبعون ألف كذا)، هذا النوع من المبالغات والأحاديث التي يكثر القصّصون والإخباريّون غالبًا من إيرادها في مسائل الترغيب والترهيب ينبغي أن نعرف أن العلماء قد استعبدوها.

خامس عشر: أن لا يكون للراوي بواعث خاصّة نفسيّة عقديّة أو مصالح حزبيّة.

سادس عشر: أن لا يكون من موروثات الحضارات الغابرة العقائديّة أو الفلسفيّة مثلا موروثات بني إسرائيل، وقد دخل تراثنا من هذه الموروثات، فعن أبي هريرة([1]) "حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"([2])، وكان هذا الحديث تقريبًا رافعًا للحواجز التي كان كثير من العلماء يتردّدون في اجتيازها في الرواية عن بني إسرائيل، حتى امتلأت بالمرويّات الكتب والمدوّنات عنهم وعن سواهم وهي أمور كثيرة.

هذه هي الشروط التي وضعها الأقدمون، جمعت مما يسمّونه بعلم الحديث دراية، نستعرض هذه الأمور الستة عشر فإذا وجدنا أن الحديث فيه شيء أو عيب من هذه العيوب، أو إنه لا يستطيع أن يجتاز هذه المقاييس فلنعلم أن الحديث فيه مشكلة ولا يمكن قبوله.

تلازم صحة السند والمتن

لقد أجرينا بعض التجارب على بعض الأحاديث، قال العلماء أو بعضهم بصحّتها، ووجدنا فيها عيبًا من العيوب، وسبحان الله حينما تمّت مراجعة السند نفسه، وجد أن في السند مشكلة، يعني إما أن يكون فيه واحد كذاب أو وضاع أو دساس أو غافل أو شيء من هذا. هذا النوع من التلازم بين صحة السند وبين هذا، ولكن ما ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا بأي

---

[1] - أبو هريرة عبد الله بن صخر صحابي جليل من أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

[2] - رواه البخاري كتاب العلم باب أثم من كذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

حال من الأحوال أن ما يثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، يؤخذ به، وأي إنسان ينكر هذا الحديث أو يرفضه أو لا يقبله بحال من الأحوال، وإذا كان من الأحاديث التي جاءت في مجال التبليغ أو التشريع أو نحوها كما ذكر العلماء. لكن في الوقت نفسه حينما نختلف على قبول راوي من الرواة أو نختلف أقول لك هذا الحديث فيه عيب ما، وأنت تقول لا ليس فيه هذا العيب، فلنحذر أن يكفر بعضنا بعضًا، أو يبدع بعضنا بعضًا، أو يفسق بعضنا بعضًا، نتيجة الاختلاف حول شخص.

والسنّة من حيث هي صادرة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يسع مسلمًا مؤمنًا يؤمن بالله واليوم الآخر أن يرفض منها كلمة واحدة: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦).

ولكن من حيث السند والمتن علينا، أن نتدبر وأن نحاول أن نصحح وأن نراجع يصح عندك ولا يصح عندي تثق بهذا الراوي ولا أثق به. ترى أن هذا الحديث خال من هذا العيب وأنا أرى فيه عيبًا آخر، أيضًا لا يسع أحد منا أن ينسب الأمر إلى بدعة لأن هذه عبارة عن اجتهادين:

أنت اجتهدت بهذا الرجل واعتبرته صادقًا، وآخر اجتهد واعتبره غير ثقة، أنت اجتهدت مثلا بهذا الحديث واعتبرته خاليًا من الضعف آخر اجتهد ووجد أن هذا الحديث يمكن أن يجد فيه عيبًا من هذه العيوب التي اتفق العلماء على أن الحديث يرد بها.

هذه جولة مختصرة وسريعة مع قضيّة التعامل مع السنّة النبويّة المطهرة حاولنا فيها أن نبني بعض الخطوات المنهجيّة من ناحية، وحاولنا أن ننبه الأذهان تنبيهًا إلى أن الحديث لا بد له أن يجتاز عقبتين، عقبة في السند وعقبة في المتن، عقبة السند معروفة عند العلماء ببحوثها بعلوم الحديث رواية، والعقبة الثانية هي متعلقة بمقاييس نقد المتون.

وأنا أوصي الباحثين أن يهتمّوا بمقاييس نقد المتون هذه ويعملوا على تنميتها، لكي تصبح معروفة لأهل العلم وللباحثين، كما أوصي نفسي وأوصي غيري بأن نعمل ما نستطيع لخدمة سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإعلاء شأنها وتنقيتها من كثير مما ألحق بها، والوسائل في ذلك كثيرة.

والسنّة محفوظة بعصمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن، والقرآن محفوظ بالله جل شأنه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر:الآية ٩)، وهي محفوظة بالقرآن ومستمدّة حجّيتها من القرآن الكريم ومن عصمة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

مفهوم التراث

التراث مفهوم اختلف الناس اختلافًا شديدًا في تحديد معناه والمراد به. وسنتجاوز كل هذا الاختلاف فيما يتعلق بالتعريف، لنوضح إننا معاشر المؤمنين بالله جل شأنه، الذين أسلموا وجوههم لله تعالى لنا محترزات هي:

أولا: نستثني استثناء كاملا كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أن يندرج تحت هذا المفهوم بأي شكل من الأشكال ما عدا الشكل اللغوي الذي أشار القرآن الكريم إليه، نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (سورة غافر:٣٢).

وكل الجدل الذي دار ولا يزال يدور حول مفهوم (التراث)، وما يندرج تحته، وما يمكن أن نعني به، وما دار حوله، ومقابلته للحداثة، والمقارنة بين الأصالة والمعاصرة، أو بين القديم والحديث، أو بين التجديد والأصالة، كل هذا سنتجاوزه، فهناك بحوث عنيت به عناية خاصّة، عنيت بتحديد المفهوم والمصطلح وهي كثيرة جدًا، وهنالك كتابات كثيرة جدًا من إسلاميين وغير إسلاميين، تناولت هذا الموضوع تحت عناوين كثيرة، وعنيت كثيرًا بمحاولة تحديده.

أمّا الذي يعنيني من ذلك كله لكي لا ننفق وقتًا كثيرًا فيه، أن أوكد أننا نستثني الكتاب والسنّة من أن يندرجا تحت هذا المفهوم([1])، اللهم إلا بمعناه اللغوي، وكل ما نذكره من مناهج للتعامل. وكيف نعرض التراث للنقد؟ وأي وسيلة وآليّة أو منهج نشير إليه. وذلك يعني أن الكتاب والسنّة خارجان عن مفهوم التراث.

ثانيا: تحفظ العلماء المتقدمين

لدينا موقف متحفظ يصادفنا باستمرار، فحينما نأتي إلى موضوع التراث نجد تردّدًا شديدًا، كثيرًا ما يوقف بعضنا عن المراجعة فإن كثيرًا من علمائنا كانوا يقولون: "إن في هذا الصدر شيئًا لو بحت به لخشيت أن يحصل كذا، أو يحدث كذا" وكثيرًا ما تأتي إشارات في ترجمات أعلام كبار، بعضهم من الصحابة وبعضهم من التابعين، ومن أتباع التابعين، من مختلف طبقات علماء الأمّة نجد إشارات مثل هذه، يقال: في هذا الصدر. في هذا الرأس. في هذا القلبشيء لو بحت به لخشيت أن يحدث كذا وكذا. بعضهم باح بشيء ودفع ثمنًا غاليًا، ربما يكون ذا مدرسة كبيرة يلتف حوله آلاف الطلبة سرعان ما ينفضون عنه لأنه قال قولا

---

[1] -إن مصدر الدين هو نصوص القرآن والحديث، وهذا المصدر بما هو دلالات لغوية على المراد الإلهي، فإن فهم الدين يحتاج إلى عمل واجتهاد لتعيين المراد من خلال الدلالة، فمن اجتهادات المسلمين منذ عهد الصحابة، والاجتهادادت التي جاءت بعدها متتالية نشأت إفهام دينها في علومهم وتفاسيرهم وشروحهم، وهي إفهام وإن كانت تشترك في الأسس الكليّة للدين، إلا إنها تفترق في كثير من الفروع والتفاصيل، ومن جملتها تكونت المدونة الكبرى التي تسمّى بالتراث.
ومما يجب إخراجه من مدلول التراث إجماع المسلمين، وخاصة ذلك الذي وقع عليه الإجماع في عهد الصحابة، وذلك لأن هذه الأمّة لا تجتمع على خطأ، ولذلك أجمع المسلمون على أن الإجماع هو المصدر الثالث للتشريع(انظر: في فقه التدين فهما وتنزيلا: للدكتور عبد المجيد النجار هي ٦٨-٧٠)

يخالف مألوفهم أو يخرج عمّا كانوا قد تعلّموه. لن نستطيع أن نجد مراجعات من تراثنا ناقدة بالشكل الذي يتناسب وطاقات علمائنا وأسلافنا، وما أعزّها من طاقات وما أكبرها! نجد مثل هذه التعابير: إن في القلب شيئًا لو بحت به. ما هذا الذي يتخوف أن يبوح به عالم مثل الغزالي([1]). أو عالم مثل إمام الحرمين الجويني. أو عالم مثل الفخر الرازي. وغيرهم ممن نقل عنهم هذه الأقوال. أستطيع أن ألخص بعض أسباب حالت بين كثير من علمائنا وبين مراجعة تراثنا:

١- قطع الصلة بين الماضي والحاضر:

قليلون جدًا هم الذين يستطيعون أن يدركوا العلاقة الوثيقة بين تردّي أوضاع الحاضر وثقافة وأفكار ماض متحجر.

فلو سألنا علمائنا الذين عاصروا غزو الصليبيين لبلاد المسلمين، أو الذين عاصروا غزو التتار لبلاد المسلمين، عن هذه العلاقة بين الماضي وبين الحاضر الذي بلغته الأمّة سوف تجد قليلا جدًا من الإشارات التي تشتمل على تحليل دقيق.

٢- عدم وجود التحليل الدقيق:

كثيرًا ما تحال هذه الأمور وأسباب التردّي والانهزام إلى عموميّات مثل الانحراف عن الكتاب والسنّة، والانحراف عن سيرة الصدر الأول وهكذا. هذا صحيح. ولكن صحيح على الجملة في عمومياتها. وفرق كبير بين أن نحلل الأمر إلى شيء عام ونترك الناس يحملون العام على ما يريدون. وبين ان نضع أيديهم على تفاصيل نرجعها إلى ذلك العام.

إن ابن السبكي له كتاب لطيف جدًا حتى في عنوانه اسمه (معيد النعم ومبيد النغم) وابن السبكي متأخر من علماء أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري. يتوقع مثلي حينما يقدر على قراءة مثل هذا الكتاب أن يجد فيه نوعًا من التحليل لقضيّة البلاء وكيف تكون آدابها في فنونها وآدابها. أدب عريض وكثير. ولكن يأتي إلى عمليّة تحليل تعطينا نوعًا من التصور لكيفيّة بناء الحضارات ونهوضها. وكيفيّة تراجعها وانحصارها. مع إن القرآن الكريم يمكن أن يبنى منه علم يمكن أن نسمّيه علم الحضارة. كيف تبدأ؟ وكيف تنشأ؟ وكيف تولد؟ وكيف تقوم وتندرج؟ وكيف تبدأ بالانحدار؟ ومن أين يبدأ خط الانحدار؟ أننا لو عكفنا على دراسة القرآن الكريم مع شيء من الوعي في قضايا الحضارات لستطعنا أن نخرج بعلم عن هذا. لكن كانت الأمور تحال إلى أمور عموميّة وربما إلى أمور غيبيّة.

---

[1] - الغزالي هو محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، نسبته إلى الغزالي (بالتشديد) وكان أبوه غزالا، فقيه شافعي، أصولي، متكلم، متصوف، ولد عام ٤٥٠، وتوفي عام ٥٠٥، من مصنّفاته (البسيط) و (الوسيط) و (الوجيز) و (تهافت الفلاسفة) و (إحياء علوم الدين)

٣ - سيادة الفكر الجبري:

حين ساد الفكر الجبري وأساء المسلمون فهم القضاء والقدر بدأت تحال عدة أمور إلى القدر، الله سبحانه وتعالى هو المسئول. نحن لم نفعل شيئًا. لكن الله جل شأنه هو الذي سلّط علينا الاستعمار وأفقرنا. لكن لم تحصل مراجعة لما كسبت أيدينا. الله تعالى قد حدّد: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. ابحث في نفسك. ابحث في عقلك. ابحث في فكرك. ابحث في تراثك لكي تدرك أين موقع الإصابة؟

٤ - ارتباط المراجعة بالإلحاد والانحراف:

بالنسبة لعصرنا وجيلنا هذا أصبحت قضيّة المراجعة للتراث تقريبًا تمتد ببعضنا إلى الإلحاد في بعض الأحيان وهذا نوع من الخلط.

٥ - ارتباط فكرة المحافظة على التكوين الثقافي بالمحافظة على التراث:

بالنسبة لأبناء هذا العصر ارتبطت قضيّة المحافظة على التراث بالمحافظة على الهويّة. هويّتنا، شخصيتنا، تاريخنا، تكويننا، تراثنا أمر لا ينفصل عنه. إن القرنين الأخيرين كانا فترة صراع بيننا وبين خصوم أشداء، أوروبا اجتاحتنا، وقسمت ديارنا، وأساءت إلينا، فالتعرض للتراث يعتبر بمثابة التعرض للهويّة، وبالتالي نجد أشد المقاومة وأشد النصرة. كما إن قيادات حركة الإصلاح خلال القرنين الأخيرين استعملت التراث كأداة تحريضيّة لتعبئة الأمّة وتكثيف ثقتها بهويّتها، لكي تصمد أمام الاجتياح من ناحية، ولكي ترد الاجتياح وتقاومه من ناحية أخرى.

٦ - افتراض الماضي خير من الحاضر:

دائمًا أصبح لدينا تفكير بأن الماضي، حتى ماضي والدي، أو حتى ماضي والدتي، أو حتى ماضيك في العشرين سنة والثلاثين سنة، محكوم عليه بالبراءة والأفضليّة، ومحكوم عليه بأنه خير من الحاضر، الماضي صالح والماضي سليم، أمسي أحسن من يومي، نزعة أصبحت جزءًا من الحواجز والحجب الكثيرة التي لا تسمح بعمليّة نقد.

بل أحيانًا نوصل لها ونحمل قوله تعالى جل شأنه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. نحمله على غير وجهه، ونقول في معناه: دعك من الماضي ما دمت تؤمن بصحّته وبسلامته وبوجوب إعادة إنتاجه، أو نقول دعونا نتجاهله لأن البحث فيه يخشى منه أن يعيدنا إليه، بينما يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

مئات الآيات تجدهل تشير إلى الدرس الماضي. حاول أن تفهمه، تدرس نقاط القوة فيه ونقاط الضعف، حاول أن تعرف مواطن الإصابة، مواطن القوة، خطوط الاستقامة والانحراف، القرآن الكريم يكاد أن يكون ثلث آياته مكرّسًا للنظر في هذه الأمور، دراسة أحوال من سبق دراسة لا يمكن أن نتجاوزها لأن عليها يتأسس حاضرك، ويتأسس مستقبلك.

٧- المحافظة على مكانة العلماء:

من العوامل التي تشكل ضغوط علينا وتحول بيننا وبين مراجعة التراث إننا ورثة تقاليد ذات حساسيّات شديدة لأية مراجعات لآراء ومذاهب تكلّمت بها شخصيّات كرمت مكانتها التاريخيّة وكرست مشروعيّتها في العقول والقلوب والنفوس . وذلك لإصابة فكريّة قديمة كانت تخلط بين الرأي وقائله فليس هناك تمييز بين الرأي من حيث هو رأي وبين قائله فما حذّر منه الإمام علي عليه السلام من أن يكون معرفة الحق بالرجال وقعت فيه هذه الأمّة منذ وقت مبكر ولا تزال تعيشه.

كان لنا شيخ اسمه (أمجد)، وكان آية في الذكاء حينما يكون في الدرس ونقرأ عليه ينقد. فتقرأ من كتاب الهداية من فقه الحنفيّة فيقول: إن الإمام أبو حنيفة ليس له حق أن يقول هذا القول لا يليق به، كان ينبغي أن يقول كذا. الدليل يقول كذا. فيحاكمه محاكمة دقيقة جدًا. فإذا خرجنا من الدرس، قد يأتيه من يقول له: شيخنا الإمام أبو حنيفة مذهبه فيه الموضوع الفلاني لا أرى فيه وجاهة.

فيقول: يا شيخنا احذر إياك أن تتطاول على هؤلاء العلماء، إياك أن تتحدث بشيء.

فيرد: يا شيخي أنت كنت قبل ساعة تنقد وتتطاول وتسفّه!

فيقول:لا ينبغي أن تفتح هذا المجال أبدًا، لأنه إذا فتح تحدث مشاكل كثيرة.

وجهة نظر، فهو يخشى أن تهتز مكانة الإمام الأعظم أبي حنيفة؛ في نفوس الناس. النقد أداة معرفيّة، وسيلة من وسائل المعرفة، لا يمكن أن يستغني نظام معرفي عن نظام النقد على الإطلاق. والسب والهجو والحط من قيمة الشخص مسألة أخرى مختلفة اختلافًا كبيرًا. ورأينا مثل القاضي عبد الجبار الهمداني وهو كان رجلا شافعيًّا، يقلد الإمام الشافعي في الفروع، لكن في الأصول وفي القضايا الاعتقاديّة له منهجه، فحينما نقل له عن الشافعي قول في مسألة ما قال: والله إن أخطاء الكبار أو أخطاء العظمتء على أقدارهم وهذه من أخطاء الإمام الكبير.

هو جليل القدر. وهو كبير عندي وعظيم عندي. لكن هذه الغلطة أيضًا كبيرة جدًا. كان يقلده وهو من أتباعه ومقلّديه ولم يخرج عنه. وكان أبو يوسف ومحمد كثيرًا ما يردّان آراء أبي

حنيفة. والآن لو فتحت أي كتاب فقهي لوجدت آراء لأصحاب أبي حنيفة تخالف آراءه. لوجدت آراء لأصحاب الشافعي تخالف الشافعي. وآراء لأصحاب أحمد تخالف أحمد. لم يكونوا يرون في الأمر شيئًا؛ لأن النقد كان قضيّة معرفيّة وأداة معرفيّة وليس أداة انتقاص.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ كفى المرء نبلا أن تعد معايبه! كلما وجدنا أخطاء عديدة ونقدناها وحللناها وفسّرناها، فذلك دليل على عظم العالم وجلالة قدره.

تقاليد احترام الأكبر في السن والمقام. تقاليد والحمد لله متأصلة في ثقافتنا، ولكن صَاحَب هذه التقاليد نوع من الانحراف بمفهوم الاحترام. كما انحرفنا بمفهوم النقد. راجعت امرأة عمر زوجها في شيء فغضب، فقالت له: لِمَ تغضب وابنتك حفصة تراجع رسول الله عليه الصلاة والسلام والوحي ينزل عليه. قال: أو تفعل ذلك؟ فقالت: نعم. فذهب إلى حفصة مغضبًا. فأخبرته بصحة ذلك وبأن ذلك جزء من خُلق رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأنه يشجّعهن على هذه المراجعة. فظن أن ابنته تفعل ذلك متأثرة بما تفعله عائشة لصغر سنها وجمالها وقربها من رسول الله عليه الصلاة والسلام، لكن حفصة نفت ذلك وقالت: هو الذي يطالبنا بأن نراجع وننقد.

واستدراكات عائشة على الصحابة استدراكات معروفة.

لكن أيضا العالم مطالب أن يكون نقده ومراجعته منطلقة من منطلق موضوعي بحت، وليس من منطلق تجريح وانتقاص أو محاولة النزول بمرتبة من ينتقد لأي سبب من الأسباب، لأن ذلك يساعد على إشاعة كل المفاهيم الخاطئة.

الصحابة كانوا يراجعون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي ذلك قصص كثيرة. يا رسول الله أهو الوحي أم الرأي والحرب والمكيدة؟ وهنالك الكثير من النماذج، عندنا تراث هائل في هذا الموضوع. نحن أهل التراث ينبغي أن لا ننتظر أن يأتي مستشرق أو علماني أو كافر أو عدو لينقد تراثي حتى أرد عليه، ولكن ينبغي أن نراجع تراثنا فنحن أولى به.

نحن أمّة أصيلة وفكرة الإجماع فكرة غير موجودة كدليل يعتمد عليه في قضايا التشريع إلا عند هذه الأمّة ويعتبرونه دليلا من أدلّتنا الشرعيّة. ومن أنواع هذا الإجماع الذي عرفته أمتنا في تاريخها في نطاق ضيق ما يسمى بالإجماع السكوتي.

لم تعرف أمّة فيما أعلم هذا الذب يسمّى بالإجماع السكوتي كدليل أو كجزء من أجزاء الإجماع. ما هو الإجماع السكوتي؟ هو يعني سكوت العلماء، وسكوت الفقهاء وهو يعبر عن الرضا في الأمر المطروح إلى مراجعة. والإجماع السكوتي أمر يأخذ به الشافعيّة في نطاق ما، بعض الحكام كانوا حينما يريدون أن يعطوا المشروعيّة، كانوا يدعون الفقهاء والآخرين المعارضين في قصر السلطان، فيقوم قاضي القضاة بعد التشاور فيقول: الأصل كذا، والدليل

لكذا وكذا، والآخرون لا يستطيعون المعارضة، فقالوا هناك دليل يسمّى بالإجماع السكوتي. حينما يكون جزءًا من فكرنا، قطاع من ثقافتنا. من الطبيعي أن تكون هنالك إصابة فكريّة، وهي قد تبدو بسيطة لكنها بعد ذلك تتحول إلى سرطان جلد وإلى ما هو أكبر منه إذا لم تعالج. وكم من عالم أصيب بقضيّة الإجماع السكوتي هذا.

٨- قضيّة الخروج عن الإجماع:

أمّة يتحول فيها الاجتهاد الذي هو أول المطالب في دينها، يتحول إلى تهمة يعاقب عليها ويسجن. وفي كتب أخرى نجد مثل هذه الأمثلة وفي تراجم كثيرة، النقد لسبب أو آخر تحول إلى محاولة لتفريق كلمة الأمّة. هنالك من يستغلّون أخطاء معيّنة للتفريق. علينا أن يكون لدينا معيار نميّز به بين النقد المعرفي المنهجي الذي هو من داخل دائرة الالتزام بالإسلام، وبين النقد الذي يهدف إلى عمليّة الهدم وتفريق الأمّة. شاعت في ثقافتنا وترسّخت في نفوسنا فكرة، (ما ترك السابق للاحق شيئًا)، (ليس بالإمكان أبدع مما كان) هذه عبارات قالها علماء السلف ومنهم أبو حامد الغزالي المتوفّى ٥٠٥هـ في مناسبات معيّنة، لكن تحوّلت إلى جزء من ثقافتنا. إنهم عكلوا كل المطلوب وكل ما علينا أن نستهلك هذا التراث ونحن مستريحون.

إذن من يقوم بمحاولة مراجعة أو نقد سوف نسلّط عليه مثل هذه العبارات وسوف تجد نوعًا من المقاومة الشديدة في ضمير الأمّة لهذا الاستقرار. ومعظم الذين استدركوا أو مارسوا النقد من علمائنا تعرّضوا لكثير من المشكلات في مقدمتهم الأئمّة الأربعة: الإمام الشافعي جيء به مكبّلا بالسلاسل من اليمن إلى بغداد وأوقف بين يدي الرشيد متّهمًا لأنه حينما جاءه أحد المشاغبين كالعادة ووجّه إليه سؤالا ملغومًا حول آل البيت أجابه ببيت شعر:

إن كان (رفضي) حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

الإمام أبو حنيفة[1] معروف أنه مات بالسجن لامتناعه عن القضاء ولنقده. الإمام أحمد[2] قصّته معروفة ضربه المعتزلة إلى أن كادوا يقتلونه. الإمام مالك ابتلي وامتحن في قضيّة وهي موضوع طلاق المكره. خلفاء بني أميّة مرت عليهم فترة كانوا يأخذون على الناس البيعة موثقة بإيمان وعهود وبالطلاق، فالناس بدأت تتحرج أن تخالفهم فجاءوا إلى الإمام مالك ليسألوه. هل هذا الطلاق الذي في البيعة يأتي من قبيل طلاق المكره؟ فراح علماء السوقة وقالوا للمنصور: إن الإمام مالكًا يريد أن يقول لهؤلاء أن لا بيعة في أعناقكم لأنه

1 - أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن كاوس هرمز الفقيه المجتهد المحقق، أحد أئمّة المذاهب الأربعة، أصله من فارس، ولد بالكوفة (٨٠-١٥٠هـ)، له (المسند) و (المخارج) و (الفقه الكبير) و (العلم والمتعلم).

2 - أحمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله من بني ذهل بن شيبان، الذين ينتمون إلى قبيلة بكر وائل، أحد أئمّة الفقه الأربعة، ولد ببغداد، امتحن أيام المأمون والمعتصم ليقول بخلق القرآن، ولد عام ١٦٤هـ، وتوفي عام ٢٤١هـ، من مصنّفاته (المسند) وفيه ثلاثون ألف حديث و (المسائل) و (فضائل الصحابة) وغيرها.

ربط البيعة بالطلاق. فجاء به وأخذ يضربه إلى أن شقّت يده. ولكنه لم يرجع عن فتواه. لكن لو راجعنا بعض الأقوال وبعض الفتاوى التي نعتبرها الآن آراء الأمّة، لا نجد أن المصدر قاله عالم واحد، ولكن هذا العالم كانت له مدرسة والمدرسة مثلا منتشرة وجاء من تبنّى مذهبه أو آرائه. يعني الإمام أحمد بن حنبل قال عنه الطبري هو محدث وليس بفقيه حطّموه. وكاد الطبري يموت صبرًا، وكان الطبري مسجونًا ثلاثة أيام إلا أن بعض تلاميذه استطاعوا أن يخرجوه. لماذا؟ لأن الإمام أحمد كانت شعبيّته طاغية جدًا، وحينما توفي شيع جنازته حوالي مليون. لذلك أصحاب تراجم أحمد حين يحبون أن يفاخروا فإنهم يقولون بيننا وبينكم الجنائز. فلو حاولت أن تتّبع رأيًا أو مذهبًا أو قولا شائعًا. فقد تجد أن الأصل فيه رأي الإمام واحد، ولكنّه جرى تبني لهذا الرأي من خلال مدرسته وانتشارها. والعُرف الموجود في أفغانستان عُرف الإمام الأعظم. حدثت مشاكل الأفغان حول قضايا الانتخابات والمرأة فذهبوا إلى فقهاء فقالوا لهم: هم حنفيّة ولا يفتنون إلا بظاهر الرواية، فأصبحت أعرافًا، وممارسة النقد لهذه الأعراف أصبح قضيّة تعتبر في غاية الخطورة. هل يعني مثلا أن أراجع "أهل السنّة والجماعة"؟ وهو مصطلح أطلقته الحكومات على الناس الذين لم يكونوا يعارضونها، أو يرون الخروج عليها. وهل أهل السنّة وأهل الجماعة متمسّكون بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل يتمسك بسنّة رسول الله من يتجاهل كتاب الله والعياذ بالله وهو أصل له؟ وهل يكون من الفرقة الناجيّة من يتجاهل ما شرعه رسول الله؟

حركات الإصلاح المعاصرة

إذا جئنا إلى حاضرنا نجد أن تيّارات الإصلاح قد انقسمت في عصرنا هذا انقسامًا شديدًا: فريق يتبنّى ما عرف بالأصالة، يعني يحتضن التراث، كان هو كما أشرنا في موضوع تكريس الهويّة. وآخر يحتضن المعاصرة كما هي. وللأسف الفريق الأول متشدد في التراث كما هو لا يقبل أي مراجعة مما ذكرنا. والفريق الثاني تشبّث بالعلمانيّة والغرب والتقليد كما هو أيضًا بدون أي مراجعة. فالانقسام حاد بين الفريقين وبين المدرستين. لو حلّلنا وجدنا مسلمًا علمانيًا ومسلمًا تراثيًّا ماضويًّا، لا أسمّيه تراثيًّا سلفيًّا، لأن السلفيّة حقيقة كلمة جيدة ومفهوم إسلامي نعتز به، لكن ماضوي يعني يقدس الماضي أيًّا كان. لو وضعنا الاثنين وحاولنا أن نحلل مقولاتهم ونفسيّاتهم فماذا نجد؟ نجد أن كلا منهم قد انطلق من منطلق التقليد. يعني لا الذي ذهب للعلمانيّة والغرب ويتكلم عن الإبداع والحداثة والاجتهاد والمعاصرة عنده إبداع، ولا الثاني. فكلاهما مصاب وسبب الإصابة واحد وهو الثقافة التي عشعشت في مخه وركّزت في رأسه، هذه أيضًا مشكلة عدم مراجعة التراث فماذا كانت النتيجة؟ حينما جئنا إلى تراثنا اليوم وجدنا أنفسنا ننقسم من حوله من حيث الجملة إلى

ثلاثة مواقف: موقف يرفضه رفضًا مطلقًا، وإذا عرفت الحداثة والتقدم والنهضة والمعاصرة فلديك النموذج الغربي خذه كما هو! يقول الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر): إنه ليس لدينا خيار إسلام ولا عروبة نريد نهضة. هذا النموذج الكلّي أمامك خذه كما هو، إباحي سوف تكون إباحيًّا. وعندما تحدث مشاكل يقول لك : هذا ثمن التقدم، لكي تستمتع بمعطيات الحضارة . فهذا رفض التراث كله. خرج كامل منقطع، هم يسمّونه في الوقت الحاضر قطيعة معرفيّة ، قطع، بتر. كما قطعت أوروبا قطيعة معرفيّة مع تراثها اللاهوتي.

هناك فريق آخر: وهو رد فعل للفريق الأول ويرى القبول المطلق ، السنّة الماضية أحسن من الآن، والتراث كله أفضل، بل ليلة أمس أفضل من الغد. ماضويّة مطلقة مع قبول مطلق دون مناقشة للتراث.

موقف أخير: وهو موقف ينطبق على معظم حركات الإصلاح الإسلاميّة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. هو موقف انتقاء يأخذ من التراث ما يرى أنه صالح ومناسب، ويأخذ أيضًا من الغرب والمعاصرة ما يراه صالحًا. قد يقول البعض هذا موقف طيب! لكن لا. هذا كان ممكنًا أن يكون الموقف السليم لو تم في إطار منهجي، وإطار معرفي تستطيع من خلاله أن تحدّد ما تأخذ وما تترك بطريقة منهجيّة وبمعرفة، لكن حينما لا نفعل هذا فقد أصبحت القضيّة راجعة لأفكاره. يقول الإسلام ديمقراطي، ويأتي بأشياء من التراث وأشياء من المعاصرة ويجمعها مع بعضها، الموقف الصحيح هو موقف الذين يأخذون التراث والمعاصرة بمنهجيّة واضحة ترى الأمور رؤية شموليّة ولا تنتقي انتقاء عشوائيًّا.

منهجيّة التعامل مع التراث

إذا تجاوزنا كا ما ذكرناه وجئنا إلى عناصر منهجيّة التعامل مع تراثنا وأردنا أن نتجاوز المواقف الثلاثة التي أشرنا إليها:

- فلا نرفض التراث رفضًا قاطعًا كما يفعل العلمانيّون.
- ولا نتبنّاه تمامًا كما يذهب إلى ذلك الماضويّون.
- ولا ننتقي انتقاء عشوائيًّا غير ملتزم بمنهج علمي.

فما هو هذا المنهج العلمي؟ المنهج بسيط، كما يقولون: ومن شدة الظهور الخفاء، أحيانًا يكون الشيء ظاهرًا ولكن يصبح كأنه خفي ومعقد.

القرآن وتراث الأمم السابقة

المنهج القرآني تعامل مع تراث الأمم السابقة، تعامل مع التراث الإسرائيلي كله، مع التراث النصراني كله، مع تراث البشريّة من عصر آدم إلى عهد سيدنا محمد، وذلك يعني أنه

يحتوي على منهج للتعامل مع التراث "أي تراث" يمكن أن تستصحبه للتعامل مع تراثنا هذا.
هذا المنهج يعتمد أولا على الكشف عن القاعدة المعرفيّة التي ينطلق الناس منها في بناء أفكارهم، رؤيتهم للإنسان وللكون وللحياة، هذه الرؤية المتكاملة التي تشكل القاعدة التي ينطلق منها الناس في بناء أفكارهم ومقولاتهم.
هذه القاعدة مثل ما يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[1].
هذه تمثل بالنسبة لقضايا المعرفة، القلب" إن صلحت تلك القاعدة التي ينطلق منها الناس في بناء أفكارهم صلحت تلك المضغة، وإن فسدت تلك القاعدة فسدت تلك المضغة. فإذا كان الإنسان يحمل رؤية صحيحة عن الكون والإنسان والحياة وعن خالق الكون وخالق الإنسان والحياة والمعرفة صحّت أفكاره.

الجمع بين القراءتين في الأمم السابقة

إن ربنا جل شأنه حينما ذكر الأقوام في القرآن الكريم كان يشير إلى عدّة أشياء ثم يأتي إلى بعض التفاصيل. يشير أول ما يشير إلى الانحراف في هذه الرؤية.
- إما أنه لا يؤمن بخالق الكون والإنسان والحياة، ولا يدرك العلاقة بينه وبين الحياة والإنسان.
- وإما أن يشرك من لا تأثير له في عمليّات الخلق والإيجاد.
وإما أن يضل عنه بشكل أو بآخر، فتضطرب الرؤية فتصير مثلا لمن يحب الحياة الدنيا، يقول: ﴿ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (سورة الأنعام:٢٩). أخطاء في رؤية الحياة. ويقول أيضًا: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤). أخطاء في رؤية الدهر. ويقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص:٣٨). ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات:٢٤) فيصدقون.
فحينما تحدث رؤية أخرى أو اضطراب في الرؤية الأولى معنى ذلك أن القاعدة التي ينطلق منها الإنسان قاعدة مضطربة فبالتالي متوقع أن المعرفة التي تقوم على هذه القاعدة لن تكون معرفة تتصف بالاستقامة.
نحن ذكرنا إضافة إلى هذا، إضافة للرؤية وبنيانها على العقيدة وعناصرها، وقلنا أن العقيدة وعناصرها من شأنها أن توجد رؤية وتوجد تصوّرًا وللرؤية خصائصها وللتصور خصائصه. وإن هذا البناء هو الذي تنطلق منه العمليات المختلفة للبناء الفكري والمعرفي. أشرنا إلى أن هذه الرؤية تتعرض لكثير من المؤثرات أهمها أن تفتقد القدرة على أن تجمع بين

---

[1] - رواه البخاري: كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه.

القراءتين (قراءة الوحي – وقراءة الكون). فنحن نؤمن بالغيب والكون والإنسان. والإنسان هو القارئ المتنقل بين الوحي والكون، إن عرف الجمع وأحسنه كانت المعرفة التي تنبثق منها الحضارة مهتدية، وإن تم الجمع بين القراءتين بشكل خاطئ تلفيقي لا يمكن أن تعطينا المعرفة ما نريد.

التراث الإسرائيلي

فحينما آتي إلى تراث ما وأحاول أن أقوم بعمليّة نقده، أول شيء ينبغي أن أتجه إليه: ما هي القاعدة المعرفيّة الأساسيّة التي انطلق منها هذا التراث وقام عليها؟ هل هي قاعدة توحيديّة؟ هل هي قاعدة وضعيّة؟ هل هي قاعدة شركيّة؟ هل هي قاعدة مختلفة؟

أتتبع هذا فحينما أرى القاعدة عند بني إسرائيل مضطربة أشد الاضطراب ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٦) ايجيء السامري فيقبض قبضة من أثر الرسول فينبذها فيعمل لهم عجلا؟[١] وبدأوا يعبدونه، وكذا يأتون بالعجب العجاب حين يقولون: (إن الله جل شأنه في ستة أيام اشتغل وبنى السموات والأرض ويوم السبت أخذ إجازة)[٢]. والأرض تقوم على قرن ثور، أعرف أن هذا قائم على قاعدة شركيّة ومنطلق خطأ، فلا أتوقع منه أن ينتج إلا خطأ أو أمرًا مضطربًا بشكل من الأشكال. أن أستحضر الرؤية والتصور وأجري محاكمة للرؤية والتصور وللقاعدة الفكريّة التي ينطلق منها هذا.

الجمع بين القراءتين

فإذا انطلقت إلى مرحلة البخث للجمع بين القراءتين، يعني تأكدت من أنه عنده رؤية سليمة وقاعدة فكريّة، أنتقل إلى الأمر الثاني وهو هل جمع بين القراءتين أم لم يجمع؟ إذا وجدت اضطرابًا في القاعدة أصلا لا أحتاج إلى هذا البخث لأنه يجب أن أعرف من حيث الجملة أن هذه المعرفة معرفة مغلوطة وبالتالي ليس لي أن أتقبل منها شيئًا والأصل أن أرفضها. أما ما أقبله منها فلا أقبله إلا بدليل يثبت صحّته وسلامته. يعني إذا قبلت منها سأقبل الجزء الذي أتمكن من إثبات صحته أما الأصل منها فمرفوض لأن قاعدتها مرفوضة.

لكن إذا اجتزت هذا الاختبار أتى إلى مسألة الجمع بين القراءتين. وأنفلت إلى البحث عن القراءتين في النموذج، هل هذا النموذج المعرفي الذي قام على تلك القاعدة الفكريّة نموذج

---

[1] ـ قصة السامري موسى بن ظفر قصة مشهورة جاءت في سورة الأعراف وطه وتتلخص القصة في أن : موسى عليه السلام حينما ذهب إلى ميقات ربه في جبل الطور قبض السامري قبضة من تراب أثر جبريل عليه السلام فجمع الذهب والحلي وصنع منه عجلا وألقى فيه قبضة التراب فدبت فيه الحياة وصار له خوار، فعبده بنو إسرائيل من دون الله.

[2] ـ جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني من العهد القديم (التوراة): (فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله.

قائم على الجمع بين القراءتين أم قائم على التفريق؟ نموذج قائم على الجمع بشكل صحيح منهجي معرفي أو بشكل تلفيقي؟

الجمع بين القراءتين في التراث الإسرائيلي

لم يكن عسيرًا علي وأنا أبحث في هذا التراث أن أكتشف من خلال نصوص ذلك التراث ما إذا كان فيه جمع بين القراءتين أم لا.

١- عدم الصبر على طعام واحد:

على سبيل المثال نعود إلى التراث الإسرائيلي ونقرأ فيه فلا نجد جمعًا بين القراءتين على الإطلاق. نجد فيه قراءة واحدة وهي قراءة الغيب القائمة على العلاقة بالله جل شأنه، فيقول منذ بادئ الأمر يحتاجون إلى العدس، الفول، البصل، يعني نموذجه لا يقول له ابحث عن أرض زراعية وابذر وازرع وستجني الثمار، لأن هذه القراءة غير واردة في ذهنه، وظيفة الأرض غير ملتفت إليها، الوارد في ذهنه فقط هو أن يلجأ إلى الله ويقول له: هات فولا وعدسا وبصلا ... الخ، فيقول لهم: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة:٦١). قراءة واحدة.

٢- تخاذلهم عن موسى (عليه السلام):

احتاج موسى عليه السلام أن يصل للأرض المقدسة لكي يكتمل شكل الدولة يقولون ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤)، فيتيهون أربعين سنة كاملة حتى يتعلموا أن هناك قراءة أخرى لا بد أن يقرأوها. وأن سنّة الحياة تقتضي أن يقوموا بهذا الأمر.

النقد في النماذج الصغرى:

فإذا أخذنا هذا ووجدنا القاعدة الفكريّة سليمة، ووجدنا الجمع بين القراءتين سليمًا، تبدأ عمليّة القراءة لهذا التراث والتصديق عليه بمقتضى استرجاعه استرجاعًا نقديًّا على مستوى آخر، غير مستوى البحث عن القاعدة الأساسيّة الفكريّة التي انطلق منها في بناء تلك الأفكار، وغير البحث عن أساس النماذج، وإنما آنذاك يبدأ البحث والنقد في النماذج الصغرى، أبدأ محاولة دراسته في إطار النموذج الكلّي، وفي إطار القيم الحاكمة، ثم في إطار النموذج الجزئي الخاص بتلك الدائرة.

التراث الإسلامي

آتي للتراث الإسلامي فإني أجد القاعدة الفكريّة سليمة، عقيدتهم (الإيمان بالغيب) وفي إدراك العلاقة بين الغيب والكون والإنسان، وفي الجمع بين القراءتين، وأبحث عند ذلك، أجد علم الكلام مثلا وأريد أن أمارس عمليّة نقد في علم الكلام وأصول الفقه فماذا أفعل؟

أصول الفقه

إن علماء الأصول كانت القاعدة الفكريّة حاضرة عندهم وسليمة، وفكرة الجمع بين القراءتين موجودة عندهم أيضًا، ولكن أنا رأيت أشياء استوقفتني.

ما هو النموذج الصغير الذي تمت داخله عمليّة التوليد للأفكار الأصوليّة؟ كيف استنبط النموذج الأصغر وما دوره؟ لماذا تأسس؟ وكيف تأسس؟ فيكون الجواب: إن أصول الفقه مجموعة من الضوابط والقواعد التي وضعها علماء الأمّة من أجل ضبط عمليّة الاجتهاد وممارسة الاجتهاد الفقهي، وهذه القواعد والضوابط بدأت بحجم ما، وتم تكاملها لتحقيق هذا الغرض خلال حوالي قرنين من الزمان، فقد بدأ الإمام الشافعي يجمع هذه الأصول في كتابه الرسالة، ثم تلاه العلماء وكتبوا حوالي خمسة آلاف دراسة وكتاب حول نفس الموضوع، بعضها يعارض الإمام الشافعي وبعضها يؤيّده، وبعضها يزيد عليه، وبعضها يضيف إلى ما قال .. الخ.

إذًا أصول الفقه علم يقيم القواعد التي نحتاجها لممارسة الاجتهاد في أصولنا الشرعيّة، ويؤدي بنا إلى الحصول على فقه نجيب به على أسئلتنا المتنوّعة. وهو منضبط بضوابط النموذج الكلّي، منضبط بضوابط الجمع بن القراءتين، منضبط بضوابط القيم الحاكمة العليا (التوحيد، العمران، التزكية). فأمارس عمليّة نقد بسيطة وسريعة وسطحيّة لهذا العلم من أجل التمثيل.

الرسول صلى الله عليه وسلم وشرع من قبله

هناك مسألة من مسائل أصول الفقه تجدها في معظم كتب الأصول وهي: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعبّدًا بشرع من قبله قبل النبوّة وبعدها أم لم يكن؟ مسألة تبحث في أصول الفقه ويختلف العلماء حولها فبعضهم يقول: كان متعبّدًا بشريعة إبراهيم وكان على الحنفيّة و.... الخ.. حين يقول: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى﴾ (الضحى:٧) يقال لو كان على شيء لكان قال له كنت على الشيء الفلاني.

مجرد أن يطرح هذا السؤال في هذا العلم هو دعوة لنبحثه وفقًا للنموذج الكلّي:

١ - هل يجوز إيراد هذا السؤال في دائرة معرفة يحكمها نموذج كلي يدرك العلاقة بين الغيب والكون والإنسان أم لا يجوز؟

٢ - هل في دائرة الجمع بين القراءتين مقبول طرح مثل هذا النوع أم لا؟

٣ - هل في دائرة النموذج الأصغر الذي ينبثق عنه أصول الفقه مقبول أم لا؟ ليس مقبولا. لماذا؟ إذًا هي مسألة غريبة ليست من المسائل التي تندرج تحت نموذج هذا العلم. لماذا أدخلت؟ ومن الذي جاء بها؟ ومن الذي وضعها في هذا الإطار؟ ولماذا؟

الدراسة الأنثربولوجيّة لبيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كانت بيئة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة ثم المدينة، عاش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نبيًّا رسولا بين هاتين المدينتين ثلاث عشرة سنة في مكة إلا قليلا وعشر سنوات في المدينة المنّرة، لو أحضرنا واحدًا وقلنا له اعمل دراسة أنثربولوجيّة لبيئة مكة آنذاك ودراسة لبيئة المدينة فماذا نجد؟ نجد أن سكان مكة كانوا (الغالبيّة العظمى) مشركين من عرب قريش، وهناك بعض الناس الطارئة الذين جاءوا من الروم والفرس والهند كأصحاب خدمات، وهناك يهود يهتمون بالتجارة.

واليهود بالذات كان لوجودهم معنى كبير لأنهم كانوا ينتظرون نبيًّا كما أخبرتهم التوراة والإنجيل، حينما نص على هذا سيدنا عيسى وقال: (أنا لا أستطيع أن أقول لكم كل شيء، أنا لن أغير من هذه الشريعة حرفًا ولكن سيأتي من يغير في هذه الشريعة ويأتيكم بما هو أخف مما أنتم فيه فانتظروه). فهؤلاء لهم وجود ثقافي. فالأمّة الموجودة لم يأتها من قبل نبي أقصى ثقافتها الشعر والتاريخ والأنساب وقليل من علم النجوم والفلك، واليهود كانوا في مرحلة إعطاء، وليس فر مرحلة أخذ.

فقد ذكر أنهم أسهموا حتى في الحياة الأدبيّة لأهل مكّة مثل السموءل بن عادية[1] ذكر أن له شعرًا مما يدل على أن هناك جزءًا من اليهود على الأقل اندمجوا في هذه البيئة وحملوا هذه الثقافة في المدينة المنوّرة. إن المدينة أيضًا كما أخبرت كتب بني "إسرائيل" سوف تكون مهجرًا للرسول الخاتم.

واستوطن اليهود المدينة، بعضهم اندمجوا في أهلها وأصبحوا بني فلان ويحملون أسماء عربيّة اعتباريّة ولكنهم لم يكونوا يقلّون عن ثلث السكان. وبما أن البيئة الثقافيّة كانت أمّيّة فإن الثقافة المتداولة بين الناس يغلب عليها أن تكون من ثقافة اليهود. وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب يسترجع ويصدق، هم يريدون أن يصادروا عمليّة النقد متشبّثين بالتراث – تراثهم اليهودي. أمام هذا الطارئ الذي جاء ليغير.

لوقت قريب، في بعض البلاد التي عاش فيها اليهود كان من الناس من لا يثق إلا في اليهودي كمحاسب خاصة. أنا عشت في العراق ومصر قليلا أعرف أسرًا كثيرة وأعرف تجارًا كثيرين لم يكونوا يثقون إلا في اليهود! وأعرف أن كثيرين كانوا يتناقشون مع اليهود حول كثير من القضايا الغيبيّة وسواها وعن كثير من القضايا التي فيها رؤية مستقبليّة. واليهود في الخمسة قرون الأخيرة حوّلوا قضيّة التنبؤات وقراءة المستقبل إلى أداة ووسيلة ممتازة جدًا استغلّوها لتنفيذ مصالحهم. وهذا اليهودي الذي زعم قبل ثلاثين عامًا متنبئًا بكل

---

[1] - السموءل بن عادية شاعر يهودي شهير في الجاهليّة.

أحداث العالم بما فيها الحرب العالميّة الأولى والثانية، وأصدر هذه الأفكار في كتاب مطبوع بلغات أوربيّة مختلفة، وله فيلم أيضًا، حتى قضيّة حرب الخليج تنبّأ بها. والغريب أن الكتاب نشر بالعربيّة في العراق.

هل كان الرسول مقيّدًا بشرع من قبله قبل النبوءة؟

عندما نلاحظ دراسات المستشرقين الآن الذين يقولون لم يكن سيدنا محمّد إلا نصرانيًّا خرج على الكنيسة الكبرى وقرر أن يبني كنيسة عربيّة خاصة به، فاقترح هذا الدين الذي سمّاه الإسلام، أريد أن أفهم كيف أن علماءنا أدركتهم غفلة الصالحين، وجاءوا يعالجون هذه القاعدة فيدخلونها في مباحث الأصول؟ ليس هي مجرد أن تثار كسؤال في المجال الفكري وتستمر متداولة في دراساتنا الأصوليّة إلى يومنا هذا. هذا كاف لكي يعطي مؤشّرًا فكريًّا شديد الخطورة، بل هل كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متعبّدًا بشرع من قبله قبل النبوّة وبعدها؟

ضرورة مراجعة التراث

كانوا يقولون: هل أنت في مستوى الإمام الفلاني لكي تنقده؟

اختبار التعيين:

كان في الأزهر في أوقات متقدمة في الخمسين شيء اسمه (اختبار التعيين)، يأتي لك بكتاب من الكتب ويعين لك صفحة محدّدة ويقول: اقرأ واشرح وأمامك لجنة من مشاريخ كبار استخراج الناحية البلاغيّة فيها. صغها من ناحية القياسات المنطقيّة. فنّد الدعوى القائمة فيها. استدل لهم رد عليها. بهذا كانوا يزوّدون الطلاب العلم ويعلمونه وليس في هذا الذي نقوله شيء جديد. بالعكس هذا هو من تعليم التراث إننا نراجع. إن ترك النقد وترك المراجعات مظهر من مظاهر تخلّفنا وجهلنا وقصورنا العملي والمعرفي. ولكن لو أن اهل العلم قاموا بواجبهم في ممارسة هذه الأمور لكان الأمر مختلفًا ولم يتجرّأ هؤلاء الناس على هذا النوع من الممارسات.

أقوال الفرق الإسلاميّة وضرورة المراجعة:

إن أنفس مقالات المستشرقين وليس هؤلاء المتطفّلين على موائدهم إذا تتبّعناها لوجدنا من علماء المسلمين من الفرق المختلفة من قال بمثلها وأشد، وردّت عليه ونوقشت معه، وكتب الفرق والملل والنحل ملأى بهذه الأشياء، و(الانتصار) للقاضي الباقلاني أورد فيه كل ما يتعلق بنقل القرآن وتواتره، هذا الكتاب قيّم جدًا. وهو مخطوط، ولا يوجد غير مخطوطة واحدة في العالم وأتيت بها. ولكن بعد فترة لمّا رأيت الشبهات التي أوردها لبعضهم لم أخرجه، لماذا؟ لأنه متقدم تمامًا في هذا. فلا ينبغي أن تتجاوز النقد وترفضه وتخاف منه،

مع أنه أداة ووسيلة معرفيّة ضروريّة جدًا، إذا لم تمارس فستكون كالحاطب ليلا، مرة يأخذ الثعبان يظنّه عصا ومرة يأخذ العصا فيظنّها أمرًا آخر.

قضيّة رجم اليهودي في التراث الإسلامي:

يقول اليهود لقد اعترفت بصحة ديننا وتصلي إلى قبلتنا؟ على ماذا نحن نتّبعك؟ كل ما هنا أنك أتيت بمسألة جديدة نحن غير محتاجين لها. كانوا يذهبون إليه عليه الصلاة والسلام في المسائل التي فيها تخفيف . هم مدركون أن شريعته عليه الصلاة والسلام شريعة تخفيف ورحمة. فلما حدثت عندهم حادثة زنا يهودي ويهوديّة، فهم يعرفون إنه نزل القرآن بالجلد وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مؤملين أن يكون الأمر خفيفًا فنزل القرآن الكريم يقول: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)، ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧)، فقال لهم هاتوهم نرجمهم. فقالوا له لا يا أبا القاسم أنت لا يوجد في شريعتك رجم، في شريعتك جلد. قال لهم: ماذا في التوراة، أمرت أن أحكم بالتوراة، أنا مأمور الآن أن أحكم بالتوراة. رفضتم اتباعي وتقولون إنني لم آت بشيء كل ما جئت به كان أنبياؤكم قد جاءوا به. الآن نحتكم بالتوراة ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة آل عمران:٩٣)، جاءوا بالتوراة فوضع القارئ اصبعه على آية الرجم. (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله) وقرأ ما قبلها وبعدها ولم يقرأها، فعبد الله بن سلام[1] كان قد دخل الإسلام وهو حبر من أحبارهم قال: يا رسول الله مره فليرفع يده عنها وليتلُ ما تحتها. قال: ارفع يدك فرفع يده. فرأى (الشيخ والشيخة إذا زنيا .....) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارجموهم فرجموهم. فإذا مرّت في تراثنا هذه القضيّة ولم أرصدها ولم أحاول أن أتخلص منها أو أعرف لماذا جاءت معنى هذا إنني لا أعرف كيف أمارس نقدًا.

مطالبة الكافر بمسائل الشريعة:

قضيّة أخرى ومسألة أخرى من مسائل أصول الفقه، هل الكفار مخاطبون بمسائل أصول الشريعة؟ يعني اليهودي والنصراني هل هو مطالب بأن يصوم ويصلّي ويحج البيت أم ليس مطالبًا؟ اختلف الناس فالأصوليّون تكلّموا بهذا فمنهم من قال أنه مطالب وقيل لهم: مطالب لماذا؟ فقالوا هو ليس مطالبًا مطالبة أداء ولكنه يزداد عليه العذاب يوم القيامة، حسنًا أنت

---

[1] - عبد الله بن سلام صحابي جليل كان حبرًا من أحبار اليهود.

مالك يوم القيامة؟ هذا ليس شغلك. فاستدلّوا بقول الله جل شأنه حينما يسأل أهل النار يوم القيامة ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ {٤٢} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ {٤٣} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ {٤٤} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ {٤٥} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر:٤٢ -٤٦).

نسخ شريعة بني إسرائيل

(شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ) قاعدة أصوليّة أخرى. فالله سبحانه في سورة البقرة ببساطة شديدة في الآيات الأولى ذكر فيها أنواعًا للناس عند نزول القرآن، مؤمنين، كافرين، منافقين. وذكر بها قصة الخلق كبديل سفر التكوين، خلق آدم واستخلافه، ثم بدأ من الآية الثلاثين تقريبًا إلى الآية السادسة بعد المائة، الكلام كله عن بني إسرائيل قص لنا قصّتهم كاملة وعقّب عليها ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٦)، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ {١٠٧} أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (البقرة:١٠٨). الآية تتحدّث عن نسخ شريعة بني إسرائيل، تاريخ بني إسرائيل، كل ما يتعلق ببني إسرائيل. هؤلاء لا يستحقّون أن يكونوا قادة لهذه البشريّةنسخت آياتهم، وأمّتهم، ومعجزاتهم، كل شيء نسخ. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة:١٤٤).

هم جاءوا يعيرونك خذ قبلة خاصة بك وولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وبدأت عمليّة التمايز.

أنا أستغرب عندما يقول بعض الأصوليّين أن النسخ جائز عقلا وواقع شرعًا خلافًا لمسلم بن بحر الأصبهاني واليهود. نحن متّفقون مع اليود في أشياء لكننا نختلف معهم في موضوع النسخ. التعبير نفسه. يعني تعبير فيه شاهد كبير، فشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ. إن الله جل شأنه وحّد بين أمّة الأنبياء وقال: ﴿نَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الأنبياء:٩٢)، ولكن لم يوحّد شرائعهم ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨). فإن تخلط الخلطة بهذا الشكل ليقال أنه شرع لنا ما لم يرد ناسخ يعني على أن أخذ الناسخ أولا حتى نتجاوز شرع من قبلنا. نحن نعرف أن شرائعهم قوميّة اصطفائيّة محصورة في بلدان وفي أقوام معيّنين لا تتجاوزهم، نعم تشريعات قبليّة. ولذلك سرعان ما تنازلوا عنها وبدأوا يأخذون من تشريعات حمورابي والبابليين[1] والتوراة بدّلت كلها وما بقي منها إلا القليل يمكن أن يقال إنه شيء يمكن أن ينسب إلى سيّدنا موسى.

[1] - حمورابي ملك قديم في بلاد الرافدين اشتهر بسن القوانين. واتّسمت هذه القوانين بالصرامة والشدّة وهو ما يعرف بـ (شريعة حمورابي).

حكم الأشياء قبل الشرع

حكم ما قبل الشرع مسألة أيضًا من مسائلنا الأصوليّة اختلف فيها العلماء، مسألة طويلة عريضة. فالبعض يقول إن حكم الأشياء قبل الشرع الإباحة، والبعض يقول الحكم المنع..الخ جدل طويل عريض طبعًا لا تبنى عليه أشياء كثيرة. لكن السؤال كيف دخلت هذه الأشياء لتكون جزءًا من أصولنا؟ وأين كان النموذج المعرفي؟ وكيف كان يشتغل؟ ولماذا لم تشتغل عمليّة المعرفة لتقوم بعمليّة تصفية ومراجعة ونقد وغربلة لتوقف دخول مثل هذه المسائل؟ حكم الأشياء قبل الشرع قضيّة خطيرة جدًا، إن الله يقول: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى﴾ (الضحى:٧)، ويقول: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ (الشورى:٥٢). أسأل إن قبل الكتاب والإيمان هل أستطيع أن آخذ أحكامًا؟ ماذا يعني؟ ليس معناه غير أن أفتح الباب لأشياء أعطيها شيئًا من المشروعيّة حتى أدرجها.

خطورة هذه المسائل

هذه المسائل لو أخذنا بها لعدنا على نظامنا المعرفي على القاعدة الفكريّة ذاتها بالنقد. فهل يجوز للنموذج الأصغر أن يتبنّى قضايا من شأنها أن تعود عليه بالنقد؟ أو تعود على النموذج الكلي بالنقد؟ الجواب لا.

محكمة القضايا بالنموذج الكلّي:

أنا كطالب أصول فقه وبعدالة شديدة استطعت أن أخرج هذه القضايا، وحينما أراجع في أصول الفقه أجد عندي قضايا أخرى بنيت على هذا وضربت لكم وأشرت إلى أن الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة:٤٥) والضمير فيها يعود إلى التوراة. وبيّنا خصائص تلك الشريعة. بينما خصائص هذا النموذج الإسلامي أن شريعته شريعة تخفيف ورحمة. ولكن ترى لو قمنا بمراجعة لهذا التراث على ضوء هذه المحدّدات فما الذي سنكتشف؟ سنكتشف قضايا أمّة عاشت أربعة عشر قرنًا ولها تراث متنوع وواسع جدًا. فحينما نقوم بعمليّة المراجعة والتصديق عليه بكتاب الله وسنّة رسوله، ومحاكمته للنموذج الكلّي، سوف نجد العديد من القضايا التي تحتاج منا إلى مراجعة وحصر وتحديد في علوم مختلفة، سنجد مثلا من يقول إن القرآن الكريم يمثل وحدة بنائيّة كاملة لا تستطي أن تجزّءه وأنت تقرؤه وإذا قرأت فيجب أن تعيد باستمرار الكلّي إلى الجزئي، والجزئي إلى الكلي لكي تخرج بالمفهوم، فالوحدة البنائيّة كمفتاح منهاجي حينما تأتي لمحاكمة بعض التراث.

قضيّة النسخ

علوم القرآن تقول (ناسخ ومنسوخ)[1] وذكرت أسباب النسخ. فيحدث تعارض عند المجتهد. ويشعر أن هذا التعارض لا يستطيع أن يتخلّص منه إلا بالحكم بالنسخ. حاول التأويل ما نفع، حاول الترجيح فلم يستطع، فجاء بالنسخ، فحكم أن الآية ناسخة لتلك لاختلاف التاريخ بينهما. وقسّموا النسخ إلى:

١ - نسخ حكم وتلاوة[٢].

٢ - نسخ حكم مع بقاء التلاوة[٣].

٣ - نسخ التلاوة مع بقاء الحكم[٤].

وفرّعوا تفريعات كثيرة في هذا المجال، وذكروا لها امثلة ونماذج.

الوحدة البنائيّة للقرآن

إذا قلت أن القرآن الكريم يمثل وحدة بنائيّة وأن الوحدة البنائيّة تمثل عندي أداة أساسيّة في المنهج وسنستخدمها في منهجيّة النقد، هل أستطيع أن أتقبل تراث الناسخ والمنسوخ؟ لا، لا بد أن أراجعه أما كيف أفسر؟ كيف أقول كيف أعتذر لمن قاله؟ هذه قضيّة أخرى، لكن لن أستطيع أن أقبله وأقول أن هذا هو البناء الموحد، هذه الآية تنقض هذه، لا. عندما أقول أن في القرآن وحدة بنائيّة هل يمكن أن أقبل الجانب الذي يقول أن في القرآن محكمًا ومتشابهًا بمعنى مشتبه في الفهم؟ لا يمكن. لكن سوف أرجع للمصطلح القرآني وهي لغة القرآن التي استعملت التشابه قال تعالى: ﴿ مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر:٢٣) فمفهوم التشابه حينما نعيد قراءته وفقًا للغة القرآن الكريم ذاتها واستعمالاتها المتعددة، وإذا كنا نرفض أن نقول أن هناك كلمات واردة من لغات أخرى، فترفض وبشدّة أن هناك ما لا يفهم في القرآن لأن في القرآن تبيانًا لكل شيء. فهل يكون فيه ما لا يفهم؟ يمكن أن يكون غير مفهوم بالنسبة لي، لأني محدود أو لأني أي شيء، لكن لا يمكن أن

---

[1] - الناسخ والمنسوخ لغة: بمعنى الإزالة يقال نسخت الشمس الظل: أي أزالته ونسخت الريح أثر المشي والنسخ في الاصطلاح: هو رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي.

[2] - نسخ الحكم والتلاوة مثال ما رواه مسلم وغيره عن عائشة: كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات...) (انظر: مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٤، حكى القاضي أبو بكر في الانتصار عن قوم إنكار هذا النوع لأن الأخبار فيه أخبار آحاد.

[3] - نسخ الحكم مع بقاء التلاوة: مثال قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم" قيل منسوخة بقوله: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم" وقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة" قيل منسوخة بقوله: "أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة".

[4] - نسخ التلاوة مع بقاء الحكم مثاله (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد (انظر مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٦).

يكون لا يفهم. سيفهم لمن يأتي بعدي أو بعد خمسة قرون، عشرين قرنًا. لكن أن تنص أنه مشتبه أو متشابه يعني ملتبس على الفهم فليس بصحيح.

لكن عندما يكون فهمه من دائرة مفهوم القرآن في التشابه سوف أجد أن هذا التشابه مفهوم، وإنه استعمال قرآني خاص لا علاقة له بمسألة الاشتباه. وأنه حينما أرد المتشابه إلى المحكم، وأشمل ما ذكروا أنه متشابه لقواعد الأحكام، وأقرأ قراءة متكاملة، سوف أصل إلى فهم يزيل اللبس والاشتباه وأصل إلى أن هذه اللغة باعتبارها لغة القرآن وتخاطب عصورًا مختلفة وأجيالا مختلفة؛ لا بد أن تشتمل على إمكانات هذا الخطاب المتجدد المستمر مع العصور والأجيال لكي يعطي كل جيل ما هم بحاجة إليه. لكن عندما يقال يوجد علم اسمه علم المتشابه والمحكم (علم الناسخ والمنسوخ) أقول: لا أنا مضطر أن أعيد النظر فيها. لأن عندي منهجًا يقول لي: إن القرآن يمثل وحدة بنائيّة وأنا منهي عن قراءة القرآن عضين وأجزاء، فلماذا؟ ما الذي أفعل هنا؟ أستعمل محورًا منهاجيًّا قائمًا على قراءة النموذج الكلّي، قراءة القاعدة الكلّيّة، تحديد محدّدات المنهجيّة:

١ - الجمع بين القراءتين.

٢ - تحليل النموذج المعرفي الأصغر.

٣ - النظر إلى القرآن الكريم، بأنه يمثل وحدة بنائيّة باعتباره الأصل.

وبالنظر إلى ان السنّة النبويّة تتكامل مع القرآن تكامل المبيّن مع المتبين. وإن القرآن مصدر منشئ وهنا مصدر مبين، في هذه الحالة أخرج من كثير من هذا. ولما يقال إن السنّة تنسخ الكتاب وإن الكتاب ينسخ السنّة.

يجب أن أعلم أن هذه القضايا كلها من التراث الذي لا بد من مراجعته، هذه مجرد معالم بسيطة جدًا لم تتحول إلى مستوى متكامل. ولا تزال هناك جملة من المحدّدات المنهجيّة التي يمكن أن تستخدمها في مراجعة كثير من قضايا تراثنا وإعادته إلى دائرة الكتاب والسنّة بشكل صحيح. بالنسبة لعمليات النقد والمراجعة لكل نسق ثقافي أو حضاري مهما يكن قديمًا أو معاصرًا لا بد عند نقده من مراجعته بناء على ما ذكرت.

ضرورة المراجعة من داخل النسق وقواعده ونماذجه

لو حاكمت التراث إلى المنهجيّة الغربيّة الآن وقلت إنما أرفض هذا لأنه يخالف المنهج، حتى العلم التجريبي الغربي أنا أكون ظالمًا له في هذا المبدأ ومتجاوزًا للحدود، لأني أحاكم تراثًا قد اتبع وفقًا لنسق معين ولقواعد فكريّة معيّنة بأدوات ووسائل أخرى من خارج النسق. وهذا خطأ. لكن هذه المحاكمات وهذه المراجعات يجب أن تتم من داخل النسق، ونماذج النسق نفسه، ولذلك لم أحاكم أي قضيّة من هذه القضايا بأنها تخالف المنهج التجريبي أو تخالف المنهج العلمي، إنها غير معقولة، وإنما كانت محاكماتي بالنماذج التي أتيت بها من

الأصول أو من غيرها من داخل النموذج وبناء عليه. وحينما نأتي إلى محاكمة التراث الغربي سهل جدًا أن نحكم عليه بالكفر، لكن ينبغي أن نحاكمه لنموذجه هو. وأنا ذكرت سابقًا كيف تطوّرت المعرفة الإنسانيّة من بداية ما يسمّونه بعصر الأنوار الأوروبيّة إلى أن بلغنا المنهج العلمي التجريبي، فالآن لدينا منهج علمي تجريبي تعتمد عليه الحضارة الغربيّة. فمحاكماتي لها يجب أن تتم على أساس المنهج العلمي التجريبي، فإنا لم آت لأحكم عليه بناء على مخالفته للإسلام. سأقول في وصفه هو منهج قائم على رؤية مضطربة للعلاقة بين الغيب والكون والإنسان، وأقول إنه أهمل الجانب الغيبي وتبنّى الاتجاه العلماني، هذا سأقوله وصفًا. ولكن حينما أعمد إلى عمليّات النقد لا يجب أن أمارس النقد فيه إلا وفقًا لمعاييره، فما هي معاييره؟ على ذلك سيقولون نحن نعتمد على المختبر والتجربة، ونعمل إحصاء واستقراء، ونضع ملاحظات، أبدأ أحاكمه على نفس النسق وأقول له: أنت صحيح تبنّيت المنهج العلمي التجريبي، لكن هناك أزمات سوف تعاني منها، تعترف أن عندك أزمة حادة جدًا على مستوى منهجيّتك وإنك دائمًا تحاول أن تعالجها، لكن معالجتك دائمًا سطحيّة ومهزوزة، حتمًا سوف تعترف. نحتكم إلى المنهج التجريبي أو نموذجك المعرفي الذي تتبنّاه، وهو منهج قعد بك عن معالجة مشكلاتك لأسباب بسيطة جدًا ومنهجيّة مقبولة عندك، من شأن المنهج كقانون أن يعطي امتدادًا لا يتوقف، ولكن المنهج وقف بالنسبة لك ولم ينطلق وأنت تعاني من أزمات نتيجة هذا التوقف، لأنك تجاهلت بُعد الغيب ونظرت إلى أن الحياة ما هي إلا إنسان وطبيعة. ووجدت بعض مدارسك تتحدّث عن جدل الطبيعة، ومدارس أخرى تتحدث عن جدل الإنسان، وقصرت الأمر على هذا، كانت النتيجة أنك وقفت في منتصف الطريق ولم تستطع الامتداد بعلومك الكونيّة أو الطبيعيّة ولم تستطع الامتداد بعلومك الإنسانيّة ودخلت (جحر الضب)، فأنت محتاج بمقتضى هذه المنهجيّة التجريبيّة أن تتحاكم إليها، وأن تعيد النظر في المنهج. والمنهج يحتاج أن تضاف إليه عناصر تسمح بامتداده، أنا أضيف هذا العنصر من خلال الغيب، لأن الدنيا عندي متّصلة، أما أنت فمنهج جدليّتك أدّى بك أن تقف عند الحياة، وأعطيك تفسيرًا مغايرًا لتفسيرك. وحينما أعطيك هذا التفسير سوف تبدأ عمليّة الحركة من جديد، وتبدأ عمليّة الامتداد، وتخرج من دائرة العبث، ودائرة العدميّة ودائرة نهاية التاريخ، وغيرها من مظاهر أزمتك. هنا تصبح عمليّة الدعوة وممارسة الدعوة لهؤلاء هي عمليّة نقد لعلمه ومعرفته ولمنهجه وحضارته، وتقديم بدائل من داخل هذا النموذج في الوقت نفسه.

ما علاقة أسلمة المعرفة بذلك؟

الأسلمة تقوم على منهج معرفي قرآني محدّد يستوعب الماديّة القائمة في المنهج العلمي التجريبي ويستوعب الوضعيّة، ويستوعب ويتجاوز كذلك اللاهوت (بمفهومه الكنسي) الذي يستلب الإنسان والطبيعة ويعتبرهما في حالة جبر، لا شيء، لا فعل ولا حركة.
فأسلمة المعرفة بحكم اعتمادها على القرآن الكريم باعتباره يقدم لنا منهجيّة معرفيّة ووعيًا ومفاهيم ويستوعب الكون وحركته، يستطيع بإذن الله أن يقدم منهجًا قائمًا على ما ذكرنا، يتكامل مع منهجيّة التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز. والنهج الإسلامي نهج مفتوح لا ينغلق على أي عصر من العصور، وفي أي عصر من العصور، يمكن أن يستعمل لمراجعة كل ما سبق، ولمراجعة كل ما هو قائم.

الفصل السابع

التفكير المنهجي وعلاقته بالتطور العقلي

التحليل النصّي

أمامنا نص لغوي أريد أن أسمع معًا، ونحاول أن ندخل بعملية تحليل لمعرفة منطلقات الكاتب لمعرفة ما هو النموذج الكلي الذي في ذهنه. هل هو نموذج توحيدي أو غير توحيدي؟ لعل هذا يعطينا نوعًا من التطبيق على ما ذكرناه. يقول صاحب النص: (استغرق تطور مقاييس الفصاحة حوالي خمسة قرون اختلف أثناءها البلاغيون في جميع هذه المقاييس، وكان مرجعهم الذوق والمزاج سواء في وضع مقاييس جديدة أو انتقاء بعضهم البعض دون وجود مرجع موضوعي يمكن الاحتكام إليه في ترجيح رأي على رأي أو استنباط تلك المقاييس منه بطريقة منطقيّة).

البحث الحالي يستعمل نموذج ظاهرة اللغة، وهنا نريد بكلمة نموذج "مثال" وليس النموذج المعرفي، ونموذج عمليّة الاتصال في بناء نموذج لنقل الأفكار من ذهن المرسل إلى ذهن المتلقي.

وأهم نتاج استخدام هذا النموذج

١ - أنه قدّم لنفسه مرجعًا موضوعيًّا في معرفة صحة أي مقياس فصاحي.

٢ - أنه وضع المزيد من الشروط المنطقيّة اللازمة لفصاحة الكلمة والكلام.

٣ - من جهة أخرى استفاد البحث من نتاج الدراسة الحديثة في الشفاهة والكتابة لينتقل من فصاحة الشفوي والتي كان حولها مدار بحوث البلاغيين إلى فصاحة المكتوب الذي لم يطرق حتى الآن.

٤ - توصل البحث إلى أن نموذج نقل الأفكار صالح لنوعي الفصاحة.

وهذه النتيجة تدعم النموذج، لأن النموذج الذي يعبر عن الموجود فقط إنما يعتبر وسيلة وصل لديه لا تقدم جديدًا، أما النموذج الذي يستخدم في استكشاف المجهول فهو يرجى اسهامه في تطوير العلم.

تحديد النموذج المعرفي

كيف تستطيع من خلال نص لم نسم كاتبه أن نحدّد نموذج الكاتب المعرفي : نموذج ديني، إسلامي، علماني، توحيدي، شركي، لا توحيدي، غربي، تراثي؟ أريد أن نعرف كيف نحلل نصوص أو أشياء نقرؤها أو نسمعها أو ندرسها وندرك من خلال هذا التحليل النموذج الكامن وراء النص الكاتب ماذا كان يريد؟ يعني نقرأ ما وراء النص من خلال النص.

طريقة تفكيك النص

إن الطريقة التي ينبغي أن يتم فيها الحكم يجب أن تكون على طريقة تفكيك النص وتحليله واستنطاقه ثم إعادة تركيبه من جديد لاكتشاف النموذج الذي انطلق منه الكاتب، ولا داعي

أن يصرح بالنموذج، هناك كاتب هو عمدًا يقصد أن يخفى نموذجه، ويوصلك معلومة ويخفي هويّته تمامًا.

النموذج والترويض العقلي

ما زلنا منذ مائة سنة تقريبًا نستهلك أطروحات مختلفة حول انتماء إسرائيل لفلسطين وللمنطقة ونبتلعها ونجترها شيئًا فشيئًا، دون معرفة النموذج الكامن وأهدافه. أي نص كان يتكلم عن إننا تجمعنا الأديان الإبراهيميّة، إننا لا زال عندنا ثلاثة أديان، والثلاثة أديان إبراهيميّة، أبونا واحد، نحن وهم أبونا إبراهيم، هم أبوهم اسحق، ونحن أبونا إسماعيل، كل هذا كلام نحن نسمعه ونقرؤه في بحوث ، وفي دراسات، وفي كتب، وفي صحافة، وفي موعظة، وفي تفسير، وفي حديث وفي كذا، ويمر ولكن تراكماته أدّت إلى ترويض هذا العقل ليتقبّل فيما بعد النتائج التي أرادها النموذج.

تفكيك النص السابق

فنحن مثلا نقوم على هذا النص بعمليّة تفكيك:

استغرق تطور مقاييس الفصاحة حوالي خمسة قرون (خمسة قرون) و (تطور) هما: الركنان الأساسيّان الموجودان في هذه العبارة. يجب أن نفهم ماذا يريد بالتطوّر وقضيّة الخمس قرون. أنا عندما أريد أن أقرأ النص وأحلله يجب أن أفهم الصحّة. والأول (تطور) استخدم كلمة تطور، ماذا يريد بالتطور؟ هل يريد مفهوم التطوّر الذي يغرقه في قضايا التنميّة، وقضايا الاقتصاد مثلا، أو في إطاره الفكري؟ لكن لا بد من وقفة تحليل. (اختلف أثناءها البلاغيّون في جميع هذه المقاييس). جميع هذه المقاييس. كلها تحتاج إلى تحليل وتفكيك ثم إعادة تركيب الأقوال: صحيح أم خطأ. هل حصل هذا الاختلاف كواقعة؟ وهل حصل في جميع هذه المقاييس فعلا أم في بعضها مثلا؟ لن أستطيع الحكم عليه إلا بعد عمليّة التفكيك. وكان مرجعهم الذوق والمزاج سواء في وضع المقاييس أو انتقاد بعضهم البعض. وضع المقاييس شكل، و (النقد) شكل آخر. هو يريد أن يشير إلى حقلين معرفيين:

١ - حقل وضع المقاييس.

٢ - حقل النقد.

يجب أن نفهم أن النص خطير، ليس نصًّا سهلا وبسيطًا، النص فعلا مكثّف، والكاتب عقليّة هندسيّة، قام بتركيب النص بعقليّة ترميز رياضي تقريبًا. الكاتب مهندس، ومهندس الكترونيات. قضايا كمبيوتر. والنص ينطق بهذا تقريبًا.

(دون وجود مرجع موضوعي يمكن الاحتكام إليه لترجيح رأي على رأي أو استنباط تلك المقاييس منه بطريقة موضوعيّة). دعوى كبيرة جدًا، وخطيرة للغاية، ليس هناك مرجع

موضوعي يمكن الاحتكام إليه في ترجيح رأي على رأي أو استنباط تلك المقاييس منه بطريقة منطقيّة. كلام خطير جدًا.

فعلا تجيء هنا مسألة الإعجاز وتصبح قضيّة موضع نظر وأخذ ورد. البحث الحالي يستعمل نموذج ظاهرة اللغة، ونموذج عمليّة الاتصال في بناء نموذجه. هو يقصد بالنموذج هنا "مثال" ونظام معرفي لأنه أفصح فيما بعد في النص، على أنه يريد به النظام المعرفي، النموذج المعرفي وليس أي نموذج. المهم أن أي نص، أي كلام، مجرد أن يدخل الدائرة الإنسانيّة حتى النص المعجز (القرآن الكريم) السنّة النبويّة. أقوال الأئمّة. الدراسات، الكتابات، سنختلف حولها، سنختلف في فهمها.

القراءة المعرفيّة

هذه هي النتيجة وهذا يعني أنه ليس هناك مرجعيّة لكن كيف يمكن أن نقلل من حجم الاختلاف لإيجاد نوع من المرجعيّة في عمليّة التنازع؟ التقليل إنما يتم بعمليّة ما نسمّيه بالقراءة المعرفيّة. والقراءة المعرفيّة دعامتها الأساسيّة تقوم على عمليّة تفكيك وتركيب ربما لعدة مرات. قد تضطر أن تفكك النص وتغير تركيبه مرات عديدة وتركب على التركيب إلى أن تنتهي، بماذا؟ بالوصول إلى النموذج، نموذج الكاتب، ماذا يريد؟ هل فعلا هو يريد، مثلا، نفي فكرة الإعجاز أو الطعن فيها أو يريد شيئًا آخر؟ هل هو منطلق من نموذج يقبل فكرة التلفيق، فهناك نموذج إبداعي اجتهادي، وهناك نموذج ملفق، فقط ملفق، يضع شيئًا بجانب شيء بغض النظر عن أنه يكون صحيحًا علميًّا أو غير صحيح حتى يستخرج شيئًا، وهذا ما نسمّيه (بنموذج التلفيق). هناك نموذج التوفيق، إنه يريد أن يوفق فقط، لينهي الخلاف. هناك نموذج مقارنة. هناك نموذج أيديولوجي. يعني مثلما ذكرنا، ماو، أو ريجان، أو كلينتون، نموذجه موجود. ونموذجه هو الذي عنده من الأيديولوجيّة. وأنا مسلم، أريد أن أعبر عن عقيدتي المسلمة. أنا الآن متبنّي فكرة إسلاميّة المعرفة حاولت أن أقيم النظام المعرفي الإسلامي كله على العقيدة. يمكن أن يأتي إنسان آخر يقول لي أنا غير محتاج لهذه العقيدة، ونفس النظام المعرفي أستطيع أن أقيمه بطريقة أخرى. صحيح، غلط، هذا ليس موضوعنا، لكن أي نص يواجهنا، ما لم نقرأه قراءة معرفيّة، لن نستطيع أن نصل إلى إبداع. الإنسان مطالب بالإبداع مطالب بالاجتهاد. التقليد يؤدي إلى النار ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ...﴾ (الزخرف:٢٣). ليس من شيء حاول الإسلام أن ينهيه ويوقفه كالتقليد، بكل أنواعه.

وحتى مسألة التقليد الفقهي قالوا: مسألة التقليد هي أن يجتهد العامّي لمعرفة من عليه أن يقلده. يعني ولو الحد الأدنى من الاجتهاد ليجتهد. هناك أمامه أربعة أو خمسة يجتهد فيمن

هو أعلمهم، من هو أفقههم، ليكون لديه قدرة على النقد وقدرة على الحكم. حينما أطالب العامّي وأقول له موجود مثلا في المكان الفلاني خمسة مشايخ، ولا يجوز لك أن تقلد أيًّا منهم، وإنما تفكر فيهم وتبحث ثم تقرر من تقلد. إنما علّمته خطوتين أو ثلاث من خطوات الاجتهاد وهي الموازنة والمقايسة والنقد والترجيح.

جدوى القراءة المعرفيّة

القراءة المعرفيّة تفيدنا بماذا؟ حينما أكتشف النموذج الكامن في ذهن الكاتب، واكشف عن أيديولوجيّته، غايته، ومقاصده، عندما ألتقط النقاط الأساسيّة وأعرف الغاية، وأنا مدرك لنموذج الكاتب، الكتاب قد يكون مائتي صفحة وأقرأ منه أماكن متفرقة، ويكفيني هذا، قد تفوتني جزئيّات، الجزئيّات غير مهمّة أساسًا عندي، حينما أكون قد وصلت إلى هذا النموذج فقد وصلت الغاية.

حتى في القرآن الكريم هناك بعض الكتّاب كتبوا فيما يسمّى "عمود السورة". إن لكل سورة عمودًا وهذا العمود حين تكتشفه أو تفهمه تستطيع أن تفهم السورة ولو بالفهم العام.

القراءة المعرفيّة تقوم على عمليّة ماذا؟ عمليّة تفكيك.. إعادة تركيب. وجوب اكتشاف النموذج ولو كان كامنًا، يعني ليس بالضرورة أن أعرف الكاتب، ولا هويّته، لأحكم عليه بأن هذه كتابة منطلقة من نموذج توحيدي، هذه كتابة منطلقة من نموذج علماني. وقد يكون الإنسان متديّنًا ومسلمًا وتقيًّا في نفسه، ولكنه متبنّي النموذج الوضعي المعرفي وينطلق من هذه المنطلقات.

تحليل نص للإمام الشافعي

آخذ نصًّا آخر: بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس صنفان: أحدهما أهل كتاب بدّلوا أحكامه، وكفروا بالله، فافتعلوا كذبًا صاغوه بألسنتهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٨). ثم قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة:٧٩). وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة:٣٠). وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا﴾ (النساء:٥١).

وصنف كفروا بالله، فابتدعوا ما لم يأذن به الله، ونصبوا بأيديهم حجارة وخشبًا وصورًا استحسنوها، ونبذوا أسماء افتعلوها، ودعوها آلهة عبدوها فأولئك العرب، وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة استحسنوا منحوتًا ودابّة ونجمًا ونارًا وغيره فذكر الله لنبيّه جوابًا من جواب من عبد غيره من هذا الصنف، فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣). وحكى تبارك وتعالى عنهم ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا {٢٣} وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ (نوح:٢٣). وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا {٤١} إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (مريم:٤٢).

السؤال الآن: إلى أي قرن نستطيع أن ننسب هذا النص من القرون الإسلاميّة الأربعة عشر؟ فالنص ينتسب إلى القرن الثاني، النص يدع القرآن يتكلم، أكثر مما هو يتكلم هذا شأن الأقدميين.

في هذه المرحلة بدأ القرآن يأخذ موقع الاستشهاد والاستدلال، لكن هنا الإمام الشافعي كالإمام مالك، هؤلاء الأئمّة كان دائمًا قولهم تعقيبًا على القرآن الكريم وليس العكس، فهذا أسلوب ذلك القرن.

الشيء الآخر والنقطة الأساسيّة أن النص أيضًا يحتاج إلى تفكيك وتركيب. صعب جدًا أن يقال فيه قول بدون عمليّة التفكيك والتركيب. أنت عندما فككت فإن الأشياء التي اكتشفتها في استنطاقك للنص، هي التي ستجعلك تعيد تركيبها، تحوله إلى شواهد. نص كهذا يعود لسنة خمس وتسعين ومائة للهجرة استخدام كلمة صنف، الكفر، الابتداع، نصب الحجارة، وتحويلها آلهة، الصور المستحسنة، تبدو أسماء افتعلوها، بعد القرن الثاني يصعب أن تجد من يستعمل "تبدو أسماءً". يستعمل "سمّوا أشياءً" اللغة تختلف. إضافة إلى عمليّة التفكيك والتركيب والكشف عن النموذج، وهذا نموذج واضح. الإنسان يريد أن يشد الناس كلهم للنص، النموذج الكامن يريد أن يشد الناس شدًّا إلى النص، يعني في رأسي قضيّة، أحس أن هناك معركة بين النص والعقل أو شيء آخر، فيريد أن يشد الناس إلى النص ويجعلهم يعيشونه بشكل كامل، فما عنده كلام، كلامه بسيط جدًا والنصوص أكثر من كلامه. يريد أن يبرهن إنك أنت لست في حاجة إلى شيء آخر يجاوز هذا. وهذا أهم نموذج يكاد يكون كاملا في ذهن كاتب كالإمام الشافعي، كان يقود معركة النص والرأي والعقل. ويكتب في مقدمة كتابه الأصولي، الذي هو مكرّس لمعالجة هذه القضيّة. شيئًا آخر، استعمال كلمة "العجم" و "الأعاجم" هذه لها عصر وتوقّفت عنده لتفسح صدرها بعد ذلك "للموالي".. ثم لتختفي الكلمتان وتصبح ديلم، ما وراء النهر... الخ. هذا لغاية مختلفة.

التطوّر الدلالي

هذا النوع من النصوص يفرض علينا أن نفكر فيما نسمّيه بالتطوّر الدلالي للكلمة. إن الكلمة ككائن حي، تولد صغيرة كالطفل وتنمو وتشب وتصل الكهولة وتشيخ وتنقرض. ويولد لها بديل، وأحياناً تتم عمليّة تجديد من خلال الاشتقاق. بعث، وتجديد، وإحياء، لتنزل بشكل آخر. هنا تأتي الخطورة في طريقة تعاملنا مع النصوص في الكتاب والسنّة. بعضنا يطيش بالنص الذي يسمعه في الراديو أو يقرؤه في أي كتاب أو كذا فيقول: "يا أخي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذا، حرام عليك تعمل كذا. لكن إذا كان نصًّا يتعلق بتحريم وتحليل وأوامر ونواهي وكذا، احذر، احرص ما إذا كان هناك أي كلمة أصابها تطور وأنت غافل عنه. وبالتالي فكل تفسير، أو نظريّة تبنيها على ذلك تكون خاطئة. يعني عمليّة القراءة المعرفيّة للنصوص عمليّة ضروريّة، وهي جزء أساسي من فكرة أسلمة المعرفة.

أسطورة الموضوعيّة

كنت أتمنّى أن أحضر خمسة عشر نصًّا، واحد لشيوعي مثلا، واحد لبعثي، واحد لليبرالي، واحد لمؤمن بالديمقراطيّة، واحد إسلامي، كل الأنواع، ونأخذ منها الأسماء والقضايا ونبدأ بعمليّة استنطاق النص بعد تحليله، لمعرفة النموذج الكامن.

وبعض الأخوة أشاروا إلى فكرة الموضوعيّة، إن المفروض أن يكون الإنسان موضوعيًّا. الموضوعيّة أسطورة، لا موضوعيّة البتة، أنا الآن أريد أن أكلمك، عندي معتقد، وعندي نموذج، وعندي هدف، وعندي غاية، وعندي بيئة، وعندي ثقافة، وعندي لغة، وعندي مستقبل، وعندي ماضي، الموضوعيّة أسطورة ضحك بها علينا الغربيّون فترة طويلة ليقنعونا بتقبل أفكارهم وما جاءوا به. والآن حينما تقبّلنا أفكارهم وما جاءوا به اكتشفنا أن الموضوعيّة أسطورة، خرافة، لا وجود لها، هم هم متحيّزون في كل شيء.

نموذج من الجزائر

ذهبت إلى الجزائر فزرت واديًا اسمه وادي "ميزاب"، القرية صغيرة، هنالك مجموعة بيوت قد لا تتجاوز مائتي بيت هناك في الوسط الجامع. كل الطرق تتفرع من الجامع وتؤدي إليه، على يمين الجامع منزل يسمّونه منزل "العذابة" على يساره منزل "للعذابات"، فالعذابة والعذابات مصطلح للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر. يستحيل أن ترى من شباك أحد هذه البيوت الناس الموجودين في الصف الثاني. مبنيّة بطريقة لا تجعل هناك إمكانيّة لبيت أن يشرف على بيت آخر. ما هو النموذج الذي جعل البناء أو المصمّم أو المهندس يصمم بهذه الطريقة؟ نموذج العورات والحرام والحلال والنظر إلى النساء ووجوب الستر.. الخ.

تأثير النموذج الغربي علينا

الغربيّون حضارتهم حضارة عريانة أصلا، جذورها الإغريقيّة وغيرها. أحسن الفنون عندهم ما كان عاريًا، فهو ابن حضارة عريانة مكشوفة، فيحضر لي الإسمنت، جو حار وزيادة حرارة، ثم يفتح لي شبابيك من كل الأنحاء. أنا ما عندي وقت يطيب فيه الهواء إلا في شهرين في منطقة مثل السودان. الآن مناطق الخليج، تدخل إلى الرياض القديمة، البيوت الطينيّة التي درجة حرارتها أقل بعشر درجات عن درجة حرارة البيوت الأخرى التي بنيت بعد ذلك. أيها أقرب إلى بيئتي ومناخي؟ هو متحيّز ضد حضارتي، يريدني أن أشتري أسمنتًا وحديد تسليح.

الضوابط المعرفيّة

الكتاب الكريم ليس كتابًا تستطيع أن تدخله في مختبر وتقيم به تجارب. لكن هذا على مستوى المناهج، على مستوى الضوابط المعرفيّة الصارمة التي تحاكم كل فنون المعرفة، فالقرآن الكريم يستطيع أن يفعل هذا، لكن أن يدخل معك في تفاصيل مختبريّة أو ترجع إليه ككتاب زراعة وصناعة وتجارة لا.

مأزق التفكيك في المنهجيّة المعاصرة

المنهجيّة المعاصرة دخلت مأزقًا كبيرًا عن طريق عمليّات التفكيك، فمنذ سنة ثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد فكّك الفكر الغربي كل شيء عدا الذات الإنسانيّة. فكّك الطبيعة، فكّك التاريخ، فكّك الدين، جاء إلى التركيب عجز. مثل ولد رأى المفكّات فراح على سيارة والده ففككها، أتى ليركّب لم يعرف، فهو فكك كل شيء، بما فيه الدين، وأتى ليركب لم يستطع، فانطلق بشدة إلى ما سمّاه ما بعد الحداثة، واستمر يفكّك حتى فكّك الذات الإنسانيّة نفسها، ففكّك نفسه، وخرج بنتائج: إنه أنا الإنسان لست أكثر من جسم مادي، ٨٥% مني سوائل لا قيمة لها، ١٥% غضاريف وعظام ومواد كيماويّة، تستطيع أن تشتريها بكذا. هذه قيمتي. هذا كله كلام فارغ. إذا أردت أن "أبتهج" أشرب كأس خمرة، الشرب مادّي ، إذا أردت أن أشعر بسعادة أفعل ممارسات معيّنة حسّيّة وسواها، وأحصل على اللذة، أريد أن أحصل على المتعة بالشيء الفلاني، أستمتع، أنا ابن الطبيعة.

وجاء أهل الأديان كلهم وحاولوا أن يقنعوه فقالوا إنك جسم وروح، أنت عقل ونفس، وروح وجسم ومادة وكذا. قال لا أنا أصلي قرد. وزني هذا، لا ثقل، ولا تكاليف، ولا أديان، ولا حلال، ولا حرام، ولا أي شيء من هذا، دعني أعيش مثلي مثل بقيّة خلق هذا الكون. فماذا كانت النتيجة؟!

التفكك الأسري

الآن أي رئيس أمريكي يرشح نفسه أو شعار يطرحه، أريد أن أعيد لكم بناء الأسرة، إني سأشجع الأسرة وأعيد بناء الأسرة. لماذا؟ لأن الأسرة تفكّكت.

الشذوذ

شاذّان يعيشان معًا ويسمّيان أسرة، ويشاهدان في التلفزيونات يلاعبان بعضًا كما الزوج وزوجه، فهذه أسرة ومعترف بها قانونيًّا، وذمّتهم الماليّة يستطيعون أن يوحّدوها. شاذّتان تكوّنان أسرة أيضًا. شاذة منحرفة وشاذ منحرف يتفقان على الزنا يكوّنان أسرة منحرفة تلد من الزنا أو تتبنّى لقيط أسرة. ولما جاءوا إلى الدين واستنجدوا بالدين المسيحي، إذا بالدين مفكّك ليس عنده قدرة على التركيب. كنت أستمع للراديو قبل فترة إلى حوار طريف مع قسيس ورباني، والحمد لله لم يكن فيهم شيخ مسلم، فيقول المذيع للقسيس: أنتم ليس لديكم تمييز عنصري ضد الشواذ وكذا، أبدًا الآن هناك كنائس خاصّة للشواذ، فليس عندنا تمييز، بالعكس نحن فتحنا صدورنا لهم. وقال أشك أن اليهوديّة قليلا متشدّدة في هذا الموضوع فالربّاني اليهودي انزعج جدًا وقال: من قال لك تتكلم باسم اليهود؟ نحن فتحنا أماكن عبادة خاصّة للشواذ يمارسون فيها عباداتهم فما حرمناهم من حق العبادة.

الحمد لله على نعمة الإسلام! هؤلاء فكّكوا الدين. الدين لم يعد قادرًا على أن يوقف حالة التدهور هذه.

القرآن والتركيب المنهجي

القرآن الكريم مطلوب منه التحدي على هذا المستوى، على مستوى التركيب المنهجي، بعد أن تفكّك كل شيء. فنحن نعتقد أن القرآن الكريم – أولا – قادر على التحدي على مستوى المنهجيّة المعرفيّة، وقادر على الصمود لجميع اختبارات المنهج المعرفي مهما كانت، وقادر على التحدي والإعجاز على هذا المستوى، وقادر على أن يحدث منهجيّة معرفيّة قرآنيّة يمكن أن تعلم الإنسان التركيب بعد حالات التفكك.

يقال أن أي فهم للقرآن الكريم، أو لنصوص السنّة زائد على فهم أصحاب القرون الثلاثة لا حجّة فيه ولا يقبل بحال. كيف نتعامل مع هذه المقولة؟ وهل فعلا العقل المنهجي الذي يدرك شبكة العلاقات بين الأشياء، فيتجاوز الثنائيّات ويبني قواعد وقوانين، ويعرف عمليّات التعميم والاستقراء وسواها ما عرفه من سبق؟ دعونا ننظر: نزل القرآن الكريم في تلك المرحلة وهو نص معجز، خالد، مطلق، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدأ يبين القرآن الكريم للناس، بأقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسلوكه، إدراك الناس للقرآن الكريم وللسنّة النبويّة، هل تستطيع أن نقوم بعمليّة تصنيف له، أو تقييم، أو تحديد لطبيعته، أو

محاولة مقاربة؟ حين نراجع تراثنا ونفحص معلوماتنا النقليّة أو الشرعيّة نجد أن التعامل مع القرآن الكريم والتعامل مع السنّة النبويّة كان تعاملا يقوم على النظر الجزئي، يعني النظر للآية وحدها ككيان مستقل.

عندما نحاول استنباط حكم من الأحكام، ينبغي أن تجمع آيات أخرى في نفس الموضوع، فتحاول أن تعيد ترتيبها زمنيًّا لتعرف المتقدّمة والمتأخّرة، ولتعرف الناسخ من المنسوخ، والعام من الخاص، والمطلق من المقيّد، والمجمل من المبين، إلى غير ذلك. القرآن الكريم نقل نقلا متواترًا[1]، نقلته الكافّة عن الكافّة، الآف عن الآف، ولا يقبل التلفيق.

موقفنا من المنهجيّة

هي قضيّة صارمة غاية الصرامة، فإما أن تخضع القضيّة المعرفيّة للمنهج فتكون علميّة، وإما أن يرفضها المنهج فتكون أي شيء آخر. نحن الآن نقول أن هذه المعرفة التي جئتمونا بها خاصة في مجال العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة التي أخضعتموها مؤخّرًا للعلوم الطبيعيّة، وفلسفة العلوم الطبيعيّة، باعتبار أن الإنسان ابن الطبيعة وأحد نتائجها وينتمي إليها، ونسيتم نفخة الروح، ونسيتم الملائكة، وغير ذلك. قلنا لكم إن هذه العلوم لدينا عليها تحفظ، مهما كان لها من معرفيّة. أنتم استبعدّتم الوحي ونحن نريد أن نضيف بعد الوحي. سيقول لي: نعم، أنا عندي استعداد أن أبحث في قضيّتك ولكن شريطة أن تتقبل حكم المنهج. المنهج غربال لا يدخل فيه إلا القضايا التجريبيّة، وهو يحكم عليها بأحكام صارمة جدًا، وينتج أفكارًا لا تكون إلا مادّيّة، ويقوم بعمليات التفكيك والتركيب في دوائر المادة، لا في سواها، فكيف يمكن أن أخضعك بهذا وأنت تقول بشيء أصلا أنا لا أستطيع أن أقاربه منهجيًّا؟

قضيّة المقارنة

ماذا فعلت أنا في القرن الماضي وأوائل هذا القرن كإنسان مسلم؟ فمن قضايا المقاربة – أنت وصلت للديمقراطيّة "حكم الشعب بالشعب....الخ". هذا جيد ولا يتنافى مع ديني، ولكن أنا آخذ بالشورى لأن هذا هو مصطلحي، وهذا هو مفهومي، وهذا هو الذي يتناسب معي وهو لا يختلف عن الديمقراطيّة، العدالة الاجتماعيّة، أنا آخذها بديلا عن الليبراليّة، آخذ بالاشتراكيّة – ليس عندي مانع – ولكن أسمّيها اشتراكيّة عمر بن الخطاب، وآخذ بكذا، وآخذ بكذا... الخ.

فانفتحت فكرة في دائرة المقاربة. الآن انهزمت. ما استطعت أن أشيد معارف تحصّني، وأبرهن عليها علميًّا، وتكون مقبولة. وهو قاهر وطاغي ومستبد، وجبار، ومسيطر،

---

[1] - التواتر في أصل اللغة هو التتابع قال لبيد:
يعلو طريقه متنها متواتر   في ليلة كفر النجوم غمامها
التواتر في اصطلاح المحدثين هو: رواية جماعة عن جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب.

ومهيمن، فأنا اكتفيت بالمقاربة عندما بدأ يعترض علي بالمنهج العلمي. وقال لي: قرآنك يقول لي أن هناك جنًا، وتؤمن بالجن. الجن أنا لا أراه فكيف أؤمن به؟ قلت له: ألست ترى ميكروبات عندما تدخل المختبر. تكتشف أن هناك أحياء، مرة تسمّيها ميكروبات، ومرة تسمّيها جراثيم، ومرة تسمّيها بكتريا، نعم اعتبرهم هكذا.

حركتنا الإصلاحيّة في القرن الماضي كلها حاولت هذا. ذلك القرن مضى وهذا القرن على وشك أن يمضي ولم نحقق شيئًا. نقارب فحسب، نرفع من مستوانا قليلا ونقول: والله الشورى أحسن من الديمقراطيّة، الديمقراطيّة فيها عيوب، هؤلاء الأمريكان الآن ليس لديهم حرّيّة، العمال والمحافظون في بريطانيا. هذه الديمقراطيّة لدينا أحسن منها ونقارن بأي شيء من الأشياء.

قضيّة المنهج

طرحنا (إسلاميّة المعرفة) وقلت نحن لدينا نظام معرفي كامل ونستطيع أن نستبدل كل هذا، طبعا هم الآن مسيطرون وعزلونا عزلا كاملا، ونحن يمكن أن نصيح كما نشاء داخل بلادنا بإسلاميّة معرفة أو كفاريّة معرفة وهو لا ينشغل بذلك، لأنه مسيطر على كل الوسائل، مسيطر على كل المقدرات، ويقول: المنهج معي، والعلم معي، والمعرفة معي، وأنت اذهب اشرب من البحر[1] فماذا أفعل؟ أقول له: هذا حديث رواه البخاري، يقول: من البخاري أحضره للنقد، ضعه على طاولة التشريح ودعني أنقده. تنقده كيف؟ علماء السلف عندنا نقدوه واختبروه، وانتهينا وهو صحيح. يقول لك: الصحيح الآن أنا أفهمه بطريقة أخرى وليس بالطريقة التي كنت تفهمها أنت قبل عشرة قرون، الصحيح ما رواه فلان عن فلان، هذا لا يعني شيئًا بالنسبة لي، الصحيح ما يخضع لقواعدي المنطقيّة، للمنطق والمنهج الذي وضعته في هذه الدائرة.

والقرآن الكريم علّمنا التحدي، وجاء برسالة تحدي، وجاء بإعجاز، هل نستطيع على مستوى العصر المنهجي أن نقابل بمنهجيّة الرواية والمنهجيّة الأصوليّة ومناهجنا الموروثة مناهج هذا العصر أم لا؟ هذا سؤال أطرحه لنفكر فيه معًا، بعضنا يقول نعم، بعضنا يقول بتعديل، بعضنا يقول بغرض آخر.

لكن لا نريد أن يكفر بعض بعضًا، المسألة ليست مسألة هذا كافر وهذا منطلق من نموذج علماني وكذا. المسألة مسألة وصول إلى شيء نستطيع أن نتحدّى به عصرنا وأن نقدم به ديننا، ديننا خالد، ديننا عالمي، كتابنا معجز لكل القرون ولكل العصور، ويجب أن يقدّم بهذا الشكل.

---

[1] - اذهب اشرب من البحر مثل يضرب للاختيار أي افعل ما تشاء فليس لفعلك تأثير.

الإعجاز المنهجي في القرآن

إذا كان الإعجاز مستمرًّا ودائمًا فيجب أن يكون هناك إعجاز منهجي في القرآن الكريم، أليس كذلك؟ القرآن الكريم كتاب لكل العصور، مطلق، معجز، متحدى به إلى يوم القيامة، لا تنقضي عجائبه.

إذا كان تحدى عصر النبوّة بالنظم والأسلوب والبلاغة وكذا، فتحدّي هذا العصر على مستواه وبسقفه المعرفي في المنهجيّة. الإعجاز ليس ما يفعله القائمون على أمر الإعاجز العلمي، مع تقديري واحترامي وحبّي للكثيرين منهم. ليس أن تظهر قضيّة في الغرب فيقول إن القرآن أشار إليها من قبل. لماذا لم تكتشفها أنت؟ صار لك أربعة عشر قرنًا وأنت تقرأ القرآن لماذا لم تفهم؟ هناك كلام كثير حول هذه الأمور. يمكن للوعظ للإرشاد لتطمئن بعض القولب. ربما في الدعوة نستفيد من توظيف بعض قضايا الإعجاز العلمي كما يستفيد الواعظ من أي مواد كثيرة، ولكن على مستوى تحدّي وإعجلز القرآن في المستوى المنهجي نحن نحتاج بشكل عام أن نكتشف ما يعجز المنهج العلمي في دائرة القرآن. الآن المنهج العلمي علمهم كيف يبحثون في وحدة الظواهر الماديّة، وحدة المادة، الطاقة. كيف نستخلص القوانين العلميّة. كيف يجري تعميمها؟ الفيزياء كلها تقريبًا مبنيّة على هذا. أهم العلماء الآن في ظل هذه الثورة المنهجيّة، هم أهل المنهج، وهم أهل التعميمات، وهم أهل التطبيقات، فلمّا جئنا إلى هذا المنهج إذا به يفرض معالجة نقديّة تفكيكيّة تحليليّة بدون استثناء..

قبل ١٩٣٠ فكّكوا الإنجيل توينبي نفسه مؤرخ الحضارة الغربيّة المعروف يقول: لم أقتنع بأن شيئًا من هذا الكتاب تصح نسبته إلى عيسى ولا إلى الله. التوراة أثبت علماء يهود أن التوراة الحالية من موروث البابلين وليس من موروث بني إسرائيل، فلا هي توراة موسى ولا تاريخ موسى. ففي عمليّة تفكيك، جاءوا على القرآن الكريم وأيضًا فكّكوا وركّبوا وخرجت كتابات استشراقيّة كثيرة في هذا. وجاءوا للسنّة أيضًا وفعلوا نفس الشيء.

نحن نقول إن القرآن قادر على التحدي في المنهجيّة أيضًا. منهجيّة على مستوى المنهج الأعلى، أي مستوى آخر اليوم وبعد اليوم وإلى يوم القيامة. نقولها عن إيمان ونستطيع أن نبرهن عليها أيضًا في التفاصيل التي ندخلها، كيف نكتشف المنهجيّة المعرفيّة القرآنيّة التي تتحدّى المنهج العلمي التجريبي؟

مقارنة بين موقفين

أنا أسمع كثيرًا يقال: كله موجود بالقرآن، اذهب فاقرأ جزء قرآن تنل ثوابًا وتحصل على كذا، وكل الذي تريد ولا داعي لهذه الجلبة. هذا القائل قادر أن يتعامل مع القرآن بوضعه بمستواه لا يريد أكثر من هذا، اتلوه فإن الله يجزيكم بكل حرف عشرة. فما عنده مشكلة، ما

عنده أي معاناة في هذه القضايا، فلذلك لا يحس بها، لكن العالم الغربي الآن يفور ويغلي، لتقدّمه المعرفي، لتقدّمه المنهجي، لتقدّمه العلمي، عنده أزمة حقيقيّة، يبحث ليل نهار، هناك مراكز بحوث تعمل في كل شيء.

الأزمة الغربيّة

كارتر ومفهوم التوبة:

أضرب مثلا بسيطًا، الدكتور الفاروقي عليه رحمة الله حكى لنا في عهد كارتر يوم دعاه كارتر هو ومعه عشرة من علماء أديان مختلفة ومنهم مسلمون. رئيس البيت الأبيض يجلس يومًا كاملا من التاسعة صباحًا إلى نهاية الدوام يناقش مع هؤلاء العلماء موضوعًا واحدًا هو مفهوم التوبة. ما معنى التوبة في الأديان كلها، فكل واحد أدلى بدلوه. ما المناسبة للتعرف على التوبة؟ كانت المناسبة أن الإمام الخميني ذكر أنه لن يغفر لأمريكا إساءتها ضد إيران إلا إذا تابت، فكارتر يريد أن يفهم ما هي التوبة؟ فيقيم سمنارًا ليوم كامل، ويأتي بكل هؤلاء العلماء حتى يفهّموه ما هي التوبة؟

توبة الأمم

قبل أسبوعين وأنا أقود سيارتي وأستمع للراديو وإذا هناك نقاش حول توبة الأمم. هل الأمم إذا أخطأت بحق أمم أخرى تجب عليها التوبة؟ وكيف تكون توبة الأمم والشعوب والحكومات؟ موضوع لم يخطر على بالنا. أنا طالب علم وأنتم كلكم طلبة علم هل يستطيع أحد أن يتذكّر أن هناك كتابًا أو كاتبًا من كتّاب المسلمين، أقدمين أو محدثين، تناول فكرة توبة الأمم والشعوب والحكومات عن اعتداءاتها على أمم وحكومات وشعوب مثلا؟ لا أذكر هذا. أنا في حدود علمي لا يوجد، ربما تكون الأمم الظالمة ترجع إلى الله، الأمم تعود إلى الله، نقولها بعموميّات، لكن على وجه التحديد، وكيف تكون التوبة، وماذا يشترط فيها؟

اليابان والتوبة الأمريكيّة

هناك كاتب أمريكي كتب كتابا قال فيه: لقد أخطأنا في حق اليابان، قصفنا هيروشيما ونيكازاكي... وكذا. وتبنا إلى اليابان، وقدّمنا بعض التعويضات. هل هذا يكفي أم لا؟ في فيتنام فعلنا كذا وكذا. هل هذا يكفي أم لا؟ وبدأ الجمهور يناقش بالتلفزيون، المتحدّث والمذيع الذي يقدم البرنامج. وأذكر للأسف الشديد أن كل المناقشين كانوا يهودًا ونصارى، طبعًا يقولون العهد القديم قال كذا، والعهد الجديد قال كذا. واليهود بالذات يتكلّمون عن توبة بني إسرائيل وكيف هذا الأمر مؤصل في تراثهم؟ لماذا البحث الفكري يصل بهؤلاء المفكّرين إلى هذا النوع من البحوث؟ لأن عندهم أزمة، هناك إحساس بأزمة أخلاقيّة. هذا الشعب العراقي له كذا سنة، هناك أطفال يموتون من الجوع، هناك كذا. هل هذا يعتبر جناية من

الشعب الأمريكي؟ أم من الحكومة الأمريكيّة؟ أم من الأمم المتّحدة. هذه مفاهيم تدل على شيء. على وعي، على قضيّة ما، إحساس بأزمة.

الرادار الغربي

كم ندوة عقدنا عن الصحوة في داخل بلاد الصحوة؟ وعدد الندوات التي عقدت في أمريكا لدراسة قضايا الصحوة من يوم أن قامت الثورة الإيرانيّة إلى يومنا هذا لا يقل عن ثلاثمائة ندوة ومؤتمر لمختلف مراكز البحوث.

إن الغرب عنده رادار خاص برصد الأزمات أو مصادر الأزمات وقضاياها المختلفة، يتحرك فورًا لأنه في سقف ومستوى معين يفرض عليه هذا، لكن وضعنا المعرفي المتواضع يجعلنا غير شاعرين بأزمة، يعني قدرتنا على أن نعيش فيما نريد قدرة جيدة وعالية جدًا، ما لم ننفتح على العالم ونشعر إننا جزء منه. الآن لم يعد الجمل جملي. السودان أراد أن يطبّق الشريعة منذ عهد نميري، أقام احتفالا لتطبيق الشريعة، وجمع الدنيا كلها، طبقت حدودًا، العالم كله بدأ يتحدّث عن ذلك التاريخ وقبله عن ما هي فكرة الحدود في الإسلام؟ يعني يمكن الدراسات التي صدرت عن هذه القضايا – الله أعلم – لو نحصيها كأوراق في أمريكا فإننا نجدها أكثر من كتبنا الفقهيّة قديمًا وحديثًا، لماذا؟ لأن عنده رادار الإحساس بالمشكلة ووجوب حلّها. يعني ليس لديه استعداد لينام، فإنه قلق، فالأزمة الآن في مستوى المعرفة والمنهج.

السقف المعرفي المتواضع لدينا

العلوم الاجتماعيّة بأجمعها، والعلوم الطبيعيّة بأجمعها، والمناهج المعرفيّة بأجمعها. نحن لم نستطع أن نبلور خطابنا ليكون خطابًا قادرًا على الوصول إلى هؤلاء، فنحن لم ننجح في صياغة خطابنا الداخلي فكيف بخطابنا العالمي، عندما يكون الخطاب متّجها نحو نماذج ومناهج فإن هذا يكون فيه عمليّة تغيير، وعمليّة التغيير سوف تجد مقاومة، والمقاومة لن تكون سهلة. لذلك فإن صياغة الخطاب تعتبر من أدق وأكثر الأمور صعوبة في مثل هذه الأحوال، فكيف بخطابنا العالمي نحن في سقف معرفي متراجع متواضع؟ وعندما نأتي للمجال العالمي صعب علينا أيضًا أن نصوغ هذا الخطاب. والخطاب يجب أن يصاغ، يجب أن نعيد النظر في صياغة خطابنا الداخلي ليصبح خطابًا يتحدّث على هذه المستويات. لما يقول قادة المسلمين أو بعضهم (لنعمل فيما نتّفق عليه وليعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه). لكن نحن متّفقون على النموذج الكلي ومتّفقون على المنهج الكلي، وعندنا اختلاف على نماذج جزئيّة. فحينما ندرك أن هذه النماذج الجزئيّة ليس عندنا مشكلة. ولكن عندما أضع الجزئي موضع الكلي لا بد أن تقوم حرب.

من أمثلة الفشل في الخطاب الداخلي

كان لنا شيخ مغرم بسنّة اللحية لم يكن يطيق النظر في وجه إنسان حليقًا، وبمجرد أن يرى حليقًا يغض بصره، كأنه ينظر إلى امرأة، ويقول له: ألا تدري أن اللحية واجب على المذاهب الأربعة فلم تحلق؟ وأذكر مرة أنه قال أمامي لرجل صالح أعرفه: على أي مذهب أنت؟ قال: أنا على كل المذاهب، أنا رجل مسلم محمّدي. قال: لا بل أنت على مذهب هؤلاء. وأشار إلى قاعدة من قواعد الإنجليز كانت قريبة من البلد. ويمسك الصابئي فيقول له: يا أخي أنت ما شاء الله مطلق لحيتك وهذه اللحية اللطيفة وكذا، ما بقى لك إلا أن تقول "لا إله إلا الله" فما بقى لك في الإسلام إلا هذه). ما اتسع صدره لأن يقول مثل هذا لمسلم يخالفه مثلا في هذه القضيّة، ويؤدّي الصلاة والصيام والزكاة والحج. فإذًا لا بد من صياغة الخطاب داخليًّا وخارجيًّا لكي نخرج من هذه الحالة المضطربة.

الخاتمة

الحمد لله الأول والآخر الذي بتنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، قام الصراع بين علماء الطبيعة والكنيسة – في الغرب – كضرورة تاريخيّة، وذلك لأسلوب الكنيسة الذي انتهجتّه في ادعاء الانفراد بالمعرفة واحتكارها، وطريقتها القسريّة في التدخل في كافّة مجالات الحياة ومسالكها، إذ صبغت كل ذلك بصبغة ميتافيزيقيّة عقيمة وحاولت أن تسكن كل متحرك في سبيل التقدم، رغم أنها لا تحرك فيه ساكنًا ولأجل ذلك عمل العلماء جاهدين وحرصوا كل الحرص على تقويض النظام اللاهوتي.

وقامت بعد نهاية الصراع المنهجيّة الوضعيّة التي تجاوزت الدين، ولم تعتد بغير الحس وعالم التجريب والمختبر، واستبعد الوحي كمصدر للمعرفة.

ورغم أن الصراع كان بين الكنيسة والعلماء الطبعيّين إلا أن علماء الإنسانيّات عدلوا إلى المنهجيّة الوضعيّة، واعتبروا المنهج الطبيعي هو السلطة المرجعيّة، التماسًا – بذلك – لتحقيق العلميّة والدقة قدر الإمكان وصبغت – من ثم – كل نواحي الحياة ومختلف العلوم بالصبغة الوضعيّة، وتقاعس دور الدين وتلاشى إلا على الإطار الفردي، وصار سمة ذاتيّة ومسلكًا خاصًّا.

وفي مقابل ذلك هيمنت الوضعيّة وأصبحت أيديولوجيّة، فتضخّمت العقائد المنهجيّة، وفقدت المسلمات الكليّة، وظهرت الإحالات الفلسفيّة، والنسبيّة والعدميّة، والعبثيّة، ونهاية التاريخ، وغيرها . وظل العالم الإسلامي لكونه متلقّيًا للمعرفة من غيره – بين تيّارات ثلاثة، وهي:

* إتباع خطوات الغرب والأخذ منه بلا ضوابط بعلاته وعلمانيته، والاستقاء من فكره بخيره وشرّه دون تمحيص.

* الشحن من التراث والتفريغ على الواقع رغم ما ينتج من مفارقات.

* محاولة امقاربة والتلفيق.

وكل ذلك نشأ لغلبة النزعة التقليديّة، دون وجود نظام منهجي للإصلاح والخروج من مستنقع الأزمة الفكريّة.

ولضرورة وجود نظرة منهجيّة ظهرت (إسلاميّة المعرفة) وهي نشاط فكري ورؤية أبستمولجيّة تسعى إلى إعادة المعرفة بشقّيها الإنسانس والطبيعي، بحيث تقوم على أصول إسلاميّة من حيث الأهداف والنتيجة والتطبيق، وتحاول رأب الصدع ومعالجة الشقاق الذي حدث بين قراءة الوحي وقراءة الكون، حيث أن الاقتصار على الوحي والاكتفاء به وإغماض

العين عن الكون أدى إلى التخلف عن فقه الواقع والطبيعة والحياة، والاقتصار على التجربة والحس أدى إلى ما سبق من مفارقات.

وفكرة الجمع بين القراءتين هذه وجدت إشارات لها عند بعض المتقدّمين، كالمحاسبي، ومحي الدين بن عربي، كما أن الفخر الرازي قد ذهب في تفسيره (مفاتيح الغيب) مذهبًا عمليًّا في ذلك، فإذن هذه الفمرة ليست بدعًا من النظريّات. ولكن لم تلق بها من اهتمام وتعميق، ولا شك أن ضرب الصفح عن إحدى القراءتين والنظر بعين عوراء نظرة أحاديّة، يؤدي إلى اختلال في الفكر والمنهج، وفي المبدأ والغاية والوسيلة والنتيجة، ولا جرم أن الإسلام يعطي العلوم الاجتماعيّة المسلّمات الكليّة، ويعطي العلوم الطبيعيّة الوجهة والغاية.

ولا شك أن النموذج المعرفي أساسه العقيدة، فإذا اختلّت اختل، وإذا استقامت استقام، ولأجل ذلك يمكن معرفة النموذج المعرفي الكامن في عقل أي كاتب (إسلاميًّا كان أو علمانيًّا أو غير ذلك)، باستنطاق نصّه بعد التفكيك والتحليل، فإن للجانب المنهجي علاقة مباشرة بالتفكير العقلي.

وسعيًا وراء ما يخرجنا من مستنقع الأزمة الفكريّة كانت (لإسلاميّة المعرفة) أطراف نتعامل معها بضوابط منهجيّة وهي: القرآن والسنّة، وتراثنا الإسلامي، وتراث الآخر.

ولا شك أننا فب تعاملنا مع هذه الأطراف نحتاج إلى منهج وضوابط، أما فيما يتعلق بتعاملنا مع القرآن فيجب أن نتعامل معه كقرآن له خصائص التكامل والانسجام، ولا نتعامل معه أجزاء مفرّقة عضين، فنستنطق بذلك الآية مفردة عن نظائرها وأمثالها من نفس الموضوع، حلا لمشاكلنا، فإن هذه النظرة الجزئيّة لا تحقق مقاصد الدين ودلالاته، ولا تقدم مفهومًا متكاملا.

كما أن من أهم خصائص القرآن أن عربيّته غير عربيّة غيره، فهي متميّزة بكل معاني التميّز والخصوصيّة، ولأجل ذلك كانت أهم وسيلة لمعرفة القرآن وإدراك دلالاته ومقاصده هي القرآن نفسه، فإذا أخذ ذلك في الاعتبار، فإنه يمكن قراءة القرآن قراءة مفاهيميّة تنظر كيف استخدمت اللفظة هنا وكيف استخدمت هناك، ومن ثم ينبثق إطار محدّد دقيق ومفهوم معين في الكلمات، يراعي الوحدة البنائيّة للقرآن. وذلك مع الاستفادة من العلوم الموروثة من غير أن نجعلها المرج الأخير.

ولما كانت السنّة مبيّنة للقرآن وموضّحة له، كانت مرتكزًا أساسيًّا وركنًا معرفيًّا ركينًا في الدين، وطرفًا هامًّا من الأطراف التي تتعامل معها إسلاميّة المعرفة، وفق محدّدات وضوابط، ويكون التعامل مع السنّة النبويّة المطهّرة من نفس الحيثيّة التي يتعامل بها مع القرآن. وقد

نشأت في تراثنا الإسلامي علوم تدور حول السنّة، وتحاول أن تنفي عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتقف سدًّا منيعًا لحماية السنّة، وهي:

* السند.

* المتن.

أما فيما يتعلق بالسند فقد صرف العلماء المتقدمون جل اهتمامهم فيه، وعملوا على تعديل الرواة وجرحهم، فصار علمًا دقيقًا، أدّى دوره الجليل، ووقف حصنًا منيعًا ضد الوضع والتدليس، ولولا هذا السند لقال من شاء، ما شاء ولكننا اليوم وبعد زوال التحدّيات، فليس لدينا مبرر في انصراف جل اهتمامنا إلى السند وتعديل الرواة أو جرحهم، وإنما يجب أن نلتفت إلى المتن ومعرفة دلالات الحديث ومعانيه، مستخدمين في ذلك الضوابط الهامة ف نقد المتن، وعاملين على تطوير هذا الجانب الهام. ولا شك أن أسلافنا قد كانت لهم مجهودات مقدّرة، وعلوم تدور حول الكتاب والسنّة، فيمكن أن نستفيد من هذا التراث الثري في بناء مناهجنا المعرفيّة.

وينبغي في تعاملنا مع هذا التراث، أن لا نرفضه كلّيًّا، ولا نقبله كلّيًا، ولا ننتقي منه انتقاء عشوائيًّا، وإنما يجب أن يكون تعاملنا معه تعاملا منهجيًّا لمراجعته، فمسألة المراجعة والاستدراكات عندنا أصبحت أمرًا لا يمكن تناوله إلا بشق الأنفس والتحرج الشديد، وذلك لما رسخ في نفوسنا من تقديس الماضي والركون إليه، رغم أن المراجعة والاستدراكات قد كانت أمرًا أساسيًّا في بناء المعرفة الإسلاميّة، فاستدراكات عائشة على الصحابة، واستدراك العلماء على بعضهم، أظهر من أن تخفى.

وفي تعاملنا مع هذه الأطراف نحاول أن نتلمّس طريقًا في بناء منهجيّة متكاملة للعلوم الاجتماعّة والإنسانيّة، وفي صياغة هذا المنهج لا نأخذ المنهج الأصولي ونلقي به في حيّز العلوم الاجتماعية، غاضّين الطرف عن الاختلافات، فللقضيّة الفقهيّة خصائصها وللظاهرة الاجتماعيّة سماتها وخصائصها.

كل ذلك كان محاولات تسعى إلى التعريف بإسلاميّة المعرفة ودواعيها وأركانها وأبعادها بصورة نظريّة عامّة، وتحاول أن تتلمّس الطريق الأمثل لبناء الرؤى المنهجيّة للتأصيل العلمي، الذي يحاول إخراج الأمّة الوسطيّة من أزمتها الفكريّة وتراجعها الحضاري، بأنجح السبل والوسائل التي تستنهض الأمّة وتهدف إلى تبليغها مرتبة الخيريّة التي وضعها الله جل شلأنه فيها.

ولأجل ذلك تسعى (إسلاميّة المعرفة) سعيًا جاهدًا وحثيثًا لبناء المنهجيّة المثلى، للجمع بين القراءتين، والتعامل مع القرآن والسنّة، والتراث الإسلامي، والتراث الغربي، وتتخذ العقيدة

أساسًا للنظام المعرفي، بصورة تحاول أن تصلح الواقع، وتستشرف المستقبل، وتشرأب إلى العلياء. ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وبالله التوفيق وهو المستعان.

المحتويات

الفصل الأول

لماذا إسلاميّة المعرفة؟

الفصل السابع

التفكير المنهجي وعلاقته بالتطور العقلي